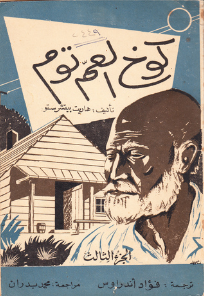

كوخ العم توم
تأليف: هاريت بيتشر ستو
الجزء الثالث
ترجمة: فؤاد أندراوس
مراجعة: محمد بدران

الالف كتاب (٢٦٣)



الجزء الثالث

ادارة الثقافة العامة
وزارة التربية والتعليم
الاقليم الجنوبي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة المجلس الأعلى
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٢٦٣)

كوخ العم توم

الجزء الثالث

ترجمه
فؤاد أندراوس

راجعه
محمد بدران

الناشر :
مطبعة أطلس
١١ - ١٣ شارع سوق التوفيقية . القاهرة



UNCLE TOM'S CABIN

هذه ترجمة كتاب

OR LIFE AMONG THE LOWLY

تاليف

Harriet Beecher Stowe

الفصل الثانى والثلاثون

أماكن مظلمة

« ان أماكن العالم المظلمة مليئة بمساكن القسوة »

مضى توم وزملاؤه قدما وهم يسيرون فى عناء ومشقة خلف عربة خشنة وفوق طريق أشد خشونة

كان يجلس فى العربة سيمون لجرى ، وكانت المرأتان قد ألقيتا مع بعض المتاع فى مؤخرتها وهما لا تزالان مصفدتين معا ، وكانت الجماعة كلها تتخذ سمتها الى مزرعة لجرى النائية

وكان الطريق وعرا مهجورا ، يلتف تارة خلال برارى موحشة من الصنوبر تهمس بينها الريح همساتها الحزينة ، ويعلو أخرى فوق مصاعد من جذوع الشجر مخترقا مستنقعات من السرو تبين أشجارها الحزينة من الأرض الاسفنجية اللزجة التى تكسوها أكاليل طويلة من الطحلب الأسود الكئيب ، بينما يطالع المسافر بين الفينة والفينة منظر الأفعى الامريكية الكريه تنساب بين الجذامير المتكسرة والأغصان المحطمة التى تبعثرت هنا وهناك وتعفنت فى الماء

وكانت الرحلة موحشة مقبضة للغريب يطوى هذا الطريق المقفر بجيب عامر وجواد مطهم لقضاء بعض شأنه ، فما بالك بالأسير الذى تقصيه كل خطوة كليلة عن موطن حبه ومناط رجائه

ذلك ما كان يدور بخاطر الناظر الى ما ارتسم على هذه الوجوه السوداء من حزن وتخاذل ، ومن مثل صبور مفكر استقرت به هذه العيون المحزونة على الشىء تلو الشىء فى هذه الرحلة الكئيبة

على أن سيمون مضى قدما وهـــو بادى السرور يجرع بين الحين والحين جرعات من قنينة خمر فى جيبه

وقال وهو يتلفت خلفه وقد لمح الوجوه الكابية المحيطة به

ــ هيا غنوا يا غلمان ــ هيا !

ونظر الرجال بعضهم الى بعض وعاد الأمر مصحوبا بفرقعـــة حادة من سوط كان الســـائق يحمله فى يده فبـــدأ توم ترنيمة مثدية :

« يا وطنى السعيد ،

يا أحب الأسماء الى قلبى ، ،

متى تنتهى أتراحى ،

ومتى الأفراح

وزأر لجرى

ــ أخرس أيها الأسود الملعون ! أظننتنى أريد ترتيمة من ترانيمك المثدية البغيضة ؟ والآن ، غنوا أغنية صاخبة حقا ــ هيا ، هيا !

وبدأ أحد الرجال أغنية من أغانى العبيد التى لا معنى لها

« رآنى سيدى ممسكا كونا (١)

مرجى مرحى يا غلمان !

فضحك حتى استلقى ــ أتبصرون القمر ،

هو ! هو يا غلمان ، هو

هو يو ! هى ! أوه ! »

وبدا المغنى كأنه يشكل الأغنية على هواه ، همه الأول توكيـــد

(*) الكون أو الراكون حيوان صغير من ثدييات أمريكا الشمالية

القافية دون أن يعبأ كثيرا بالمعنى ، وكانت الجماعة كلها تشترك فى غناء القرار بين الفينة والفينة

« هو ! هو ! هو يا غلمان ، هو

مرحى أوه ـ مرحى أوه

وكان الرجال يغنون فى ضجيج وصخب ، مصطنعين المرح ، ولكن عويل اليائس أو ضراعة المصلى ، كانت تنطوى على تعاسة أعمق مما انطوت عليه ألحان هذه الأغنية العنيفة وكأن القلب الأخرس المسكين المهدد ، الحبيس كان يلوذ بمعبد الموسيقى الصامت ويجد فيه نغمة ينفث فيها صلاته لله ! لقد كان فى هذا اللحن ضراعة لم يستطع سيمون أن يسمعها ، فهو إنما يسمع الغلمان يغنون فى ضجيج ، وكان مبتهجا بهذا ، لقد كان يجعلهم « يرفعون معنويتهم »!

وقال وهو يتلفت الى ايميلين ويضع يده على كتفها

ـ حسن ياصغيرتى لقد أوشكنا أن نصل

كانت ايميلين ترتاع اذا ثار تجرى وعنف ، أما حين وضع عليها وكلمها كما فعل الآن ، فقد شعرت أن إحتمال ضربه أهون لقد غشيت نفسها وسرت رعدة الخوف فى بدنها لما ارتسم فى عينيه من تعبير ، فالتصقت دون وعى منها بالمرأة الخلاسية الجالسة بجوارها كأنها تلتصق بأمها

وقال وهو يمسك أذنها الصغيرة بأصابعه الغليظة

ـ انك لم تلبسى قرطا قط

أجابت ايميلين وهى مرتعدة الفرائص مطرقة الرأس

ـ لا ياسيدى !

فقال

ـ حسن سأعطيك قرطا حين نصل الى البيت اذا كنت فتاة طيبة لا داعى لهذا الخوف الشديد ، فأنا لا أنوى أن أرهقك

بالعمل وستستمتعين بأوقات طيبة معي وتعيشين كما تعيش الحرائر ، وكل ما أريده منك أن تكوني فتاة طيبة

وكان لجري قد تعاطى من الخمر قدرا جعله أميل الى التلطف والتظرف وهنا بدأ سياج الضيعة يبدو للأنظار وكانت الضيعة من قبل ملكا لرجل ثري رفيع الذوق ، شديد التأنق في تجميل أرضه ولكن الرجل مات معسرا فاشتراها لجري صفقة رابحة ، وسخرها لجمع المال كما كان يسخر كل شيء واكتست الضيعة هذا المظهر الموحش الرث الذي هو نتيجة لا مناص منها للاهمال التام يحل محل العناية والرعاية

لقد تبدلت أحواض العشب المجزوزة جزا أنيقا المنبسطة أمام البيت المنبثة بينها شجيرات الزينة ، فغطتها بدلها الحشائش المتشابكة المشعثة ، وانتشرت بينها أوتاد الخيل دقت هنا وهناك فقضت على العشب ، وامتلأت الأرض بالدلاء المحطمة ، وقوالح الذرة ، وغيرها من الحطام القذرة وكان الناظر يرى في أماكن متفرقة ياسمينة أو « علندا » مضروبة ، تتدلى معقدة من مسند للزينة قد دفع الى جانب ليستخدم وتدا للخيل واستحالت الحديقة الفسيحة أرضا يكسوها النجيل ، وتطل منها هنا وهناك برأسها المهجور شجرة غريبة وحيدة • أما بيت النبات الزجاجي فقد تجرد من نوافذه ، وظهرت على الأرفف البالية أصص للزهر مهجورة جافة تقوم فيها عصي تنبيء أوراقها اليابسة بأنها كانت نبتا أخضر في يوم من الأيام

وصعدت العربة فوق ممشى من الحصى يكسوه النجيل ويظلله طريق جميل من أشجار صينية أصيلة بدت أشكالها الرشيقة وأوراقها النضرة كأنها الشيء الوحيد الذي لم يستطع الاهمال أن يروعه أو يبدله ، وما كان أشبهها في هذا بالأرواح الزكية التي تعمقت جذورها في الصلاح تعمقا يجعلها تزدهر وتنمو أشد وأقوى في وسط عوامل الفشل والانحلال

كان البيت فيما مضى فسيحا جميلا فقد بني بطريقة شائعة في

الجنوب ، فيه شرفة واسعة من طابقين تدور حول كل أجزائه وينفتح عليها كل باب خارجي أما الطابق السفلى فقائم على أعمدة من الطوب

ولكنه بدا الآن موحشا غير مريح ، فكان بعض نوافذه مسدودا بالعوارض ، وبعضها محطم الزجاج ، لا يمسك خشبه الا مفصلة واحدة ـ كان كل شيء في البيت ينبيء بالاهمال وسوء الاستعمال وعدم توفر أسباب الراحة

وكانت قطع الخشب والقش والبراميل والصناديق العتيقة تزين الأرض في جميع أنحائها واندفع نحو العربة ثلاثة كلاب أو أربعة وحشية المظهر نبهها صوت العجلات فانطلقت كالسهام ولم يمنعها من مهاجمة توم ورفاقه الا الخدم المهلهلو الثياب الذين خرجوا وراءها

وقال لجرى وهو يربت على الكلاب في سرور رهيب ويتلفت الى توم ورفاقه

« ها أنتم أولاء ترون ما سيحل بكم ! ها أنتم أولاء ترون ماسيحل بكم ـ لو حاولتم الفرار لقد ربيت هذه الكلاب على اقتفاء آثار الزنوج ، وفى وسعها أن تمزق الواحد منكم اربا كأنها تلتهم عشاءها . فخذوا الآن حذركم

ثم قال موجها الكلام الى رجل رث الثياب تجردت قبعته من اطارها وبان عليه الفضول واللجاجة في احتراماته لسيده

ـ كيف الحال يا سامبو ! وكيف سارت الأمور معكم هنا ؟

ـ على ما يرام يا سيدى

ثم قال لرجل آخر كان يقوم بجهود متحمسة يلفت نظره

ـ وأنت يا كمبو ، هل فعلت ما أمرتك به ؟

ـ طبعا وكيف لا أفعله ؟

وكان هذان الرجلان الملونان أهم عمال المزرعة دربهما لجرى

على الشراسة والضراوة تدريبا منظما كتدريبه كلابه « البولدوج » ، واستطاع بتمرينهما طويلا على الصرامة والقسوة أن يصل بطبيعتهما الى مستوى كفايات هذه الكلاب ومن الملاحظات الشائعة ، وهى ملاحظة يحسبها بعضهم اتهاما قويا لخلق الجنس الزنجى قولهم ان ملاحظ العمال الزنجى أشد عتوا وطغيانا من زميله الأبيض ولكن هذا لا يعنى الا أن العقل الزنجى قد أصابه من الهوان والاذلال أكثر مما أصاب العقل الأبيض وهو اذا صدق على هذا الجنس يصدق بالمثل على كل جنس مظلوم مضطهد فى أى بلد من بلاد الله فالعبد دائما طاغية اذا أتيحت له فرصة الطغيان

كان لجرى يحكم مزعته بضرب من تحليل القوى وتفكيكها شأن بعض الحكام الذين يحدثنا عنهم التاريخ فقد كان سامبو وكمبو يبغض أحدهما صاحبه بغضا خالصا وكان عمال المزرعة على بكرة أبيهم يبغضونهما بغضا خالصا واذ كان يضرب كل فريق من الثلاثة بصاحبيه فقد كان على ثقة من أن نبأ أى حادث يحدث فى المزرعة سيأتيه به أحدهم ما فى ذلك ريب ٠

وليس فى الدنيا انسان يستطيع أن يحيا مقطوع الصلات منبتا عن المجمع فلا عجب أن شجع لجرى تابعيه الأسودين على ضرب من الألفة الخشنة معه ــ ولكنها على أى حال ألفة عرضت أحدهما أو كليهما للأذى لأن واحدا منهما كان ، اذا استفز الآخر سيده أقل استفزاز يقف دائما على استعداد لتلقى اشارة منه لينفذ انتقامه فى صاحبه

وكان مظهرهما الآن وهما الى جوار لجرى أبلغ بيان على أن المتوحشين من بنى الانسان أحط مرتبة من الحيوان نفسه فملامحهما الثقيلة القاتمة الغليظة وعيونهما الضخمة التى يحدج بها الواحد صاحبه فى حسد ونغمة صوتهما الأجش البربرى الشبيه بأصوات الوحوش وثيابهما البالية تحركها الريح ــ كل هذا كان ينسجم غاية الانسجام مع الطابع الحقير السقيم الذى اتسم به كل ما فى البيت

قال لجرى

ـ والآن يا سامبو ، خذ هؤلاء الغلمان الى مساكنهم

ثم قال وهو يفصل المرأة الخلاسية عن ايميلين ويدفعها نحوه

ـ واليك فتاة جئت بهـا خصيصا لك ، فلعلك تذكر أنني قد وعدتك بفتاة

وجفلت المرأة ، ثم قالت فجأة وهي تتراجع

ـ رحماك ياسيدي ! لقد تركت رجلي في نيو أورليانز

قال لجري وهو يرفع سوطه

ـ وما في ذلك ، أيتهـا الـ ألا تريدين رجلا آخر هنـا ؟ لا تزيدى كلمة ـ اذهبي

ثم قال لايميلين

ـ تعالى ياسيدتي أنت تدخلين معي هنا

ولاح لحظة وجه مستوحش أسمر يلقي نظرة سريعـة من نافـذة البيت فلما فتح لجرى الباب سمع صوت نسائى يقول شيئا بنبرات آمرة سريعة وكان توم يتطلع فى اهتمـام يشوبه القلق خلف ايميلين وهى تدخل البيت فسمع لجرى يجيب فى غضب

ـ كفي لسانك عن الكلام ! سأفعل بكم جميعا ما يحلو لي !

ولم يسمع توم بعد ذلك شـيئا ، لأنه تبع سامبو الى مسـاكن العمال بعد قليل أما المساكن فكانت شارعا صغيرا من الأخصاص البدائية تقوم فى صف واحد على جزء من المزرعة بعيـدا عن بيت صاحبها وكان يبدو على الأخصـاص طابع التعاسـة والوحشية والاهمال • وسقط قلب توم حين وقع عليها بصره فلقد كان يعلل نفسه بكوخ يستطيع على حقارته أن يحتفظ به نظيفـا هادئا ، وأن يجد فيه رفا يضع عليه كتـابه المقدس ، وخلوة يعتكف فيهـا بعد كد النهار ونقل نظره بين عدد منها فلم يجد غير عشش حقـيرة

تجردت من الأثاث أيا كان نوعه ، فيما عدا كومة من القش تفــوح قذارة ألقيت فى فوضى على أرض الخص ، ولم تكن هذه الأرض سوى أرض المزرعة العارية وقد سوت أديمها الأقدام الكثيرة التى داسته

وسأل سامبو فى ذلة

ـ أيها سيكون خصى ؟

قال « سامبو »

ـ لا أدرى . ولكنى أظنك تستطيع أن تدخل هذا . وأحسب أن به متسعا لآخر ان فى كل منها الآن عددا كبــيرا من الزنوج ولا أدرى ما أنا صانع بالمزيد منهم

***

لم يعد سكان هذه الأخصاص المكدودون انيها زرافات الا أخريات المساء ــ رجالا ونساء مهلهلى الثياب قذرين ، جفاة منهوكين ، فى حالة نفسية لا تسمح بهم بالتلطف مع الوافدين الجدد لم تكن القــرية الصغيرة تعج بأصوات تشرح الصدر كانت هناك أصوات جشــاء خشنة تتشاجر عند الرحى التى كان على العبيد أن يطحنوا فيهــا جراياتهم الضئيلة من الذرة القاسية ليصنعوا من دقيقها الرغيف ــ وكان الرغيف عشاءهم الوحيد لقد ظلوا فى الحقل مذ لاح فجــر اليوم يسوقهم الى العمل سوط الملاحظ القاسى ، ولا عجب فقد كانوا الآن فى ابان الموسم ولم يترك الملاحظ وسيلة لم يجربها لاكراه كل منهم على بذل قصاراه قد يقول قائل متراخ لا يهمه الأمر « الحق أن جنى القطن عمل غير شاق »

ولكن ، أصحيح أنه غير شاق ؟ ان قيل هذا أمكن أن يقال أيضا انه ليس مما يضايقك كثيرا أن تسقط على رأسك قطرة واحدة من الماء ، بيد أن أقسى أنواع العذاب انما تحدثه القطرة بعد القطرة ، تسقــط اللحظة بعد اللحظة فى تتابع رتيب ، على المكان ذاته ، وهكــذا

العمل ، الذى لا يكون فى ذاته عسيرا ، حين يساق اليه العامل سوقا ساعة بعد ساعة ، فى رتابة لا تتغير ولا تلين ، وحين يخلو حتى من شعور الارادة الحرة الذى يخفف من ثقله الممل وعبثا حاول توم أن يلتمس بين فرقة العبيد وهم يتدافعون وجوها آدمية يأنس اليها

فلم تقع عيناه الا على رجال مستوحشين متجهمين مكتئبين ،ونساء خائرات مستضعفات أو نساء لم يكن لهن من الأنوثة نصيب — تدفع القويات منهن الضعيفات — لقد رأى أنانية الآدميين البهيمية المطلقة الغليظة ، آدميين لا يرجى منهم خير ولا يطلب منهم خير ، عوملوا كالوحوش بشتى الأساليب فانحدروا الى مايستطيع أن ينحدر اليه الآدميون فى مهاوى الوحشية .

ومضى صوت الأرحاء تدور الى ساعة متأخرة من الليل ، لأنها كانت قليلة العدد بالقياس الى الطحانين ، وأقصى الأقوياء من العبيد الضعاف المكدودين عنها فلم يحل دورهم الا آخرا

وقال سامبو وقد أقبل على المرأة الخلاسية ورمى اليها بكيس من الذرة

— اسمعى أنت ! ما اسمك اللعين

قالت المرأة

— لوسى .

— حسن يا لوسى ، أنت إمرأتى الآن عليك أن تطحنى هذه الذرة وتأتينى بعشائى مخبوزا ، أتسمعين ؟

قالت المرأة فى شجاعة المستيئس الحادة المباغتة

— لست امرأتك ، ولن أكون ! فامض الى سبيلك !

قال سامبو وهو يرفع قدمه مهددا

— سأرفسك اذن !

قالت

ـ لك أن تقتلني ان شئت ـ وخير لك أن تعجل ! ألا ليتني مت !

وكان كمبو مشغولا عند الرحى بعد أن أقصى عنها في خبث امرأتين مكدودتين أو ثلاثا كن ينتظرن دورهن ليطحن ذرتهن ، فقال لسامبو

ـ انك ستفسد علينا العمال يا سامبو ، وسأخبر السيد بأمرك

فقال سامبو

ـ وأنا سأخبره بأنك تطرد النساء عن الرحى أيها الزنجي العجوز! خير لك أن تلزم دورك

وكان توم جائعا يكاد يصرعه الجوع بعد رحلة يومه فقال له كمبو وهو يرمي اليه بكيس خشن انطوى على حفن من الذرة

ـ « خذ أنت ! خذ يا زنجي امسك ، واحرص عليه ـ فانك لن تظفر بغيرها هذا الأسبوع »

وطال انتظار توم حتى وجد مكانا عند الرحى ثم أثار شفقته اعياء امرأتين رآهما تحاولان طحن ذرتهما فطحنها لهما ، وجمع جمرات النار التي أوشكت أن تخمد لطول ما خبز عليها العبيد رغفانهم ثم انصرف الى تجهيز عشائه

وكان عمله هذا أمرا لم يألفه القوم ـ صنيعا جميلا وان يكن صغيرا ، استجاب له قلبا المرأتين ، وارتسم على وجهيهما الجامدين حنان المرأة ورقتها ، فمزجا له رغيفه ، وقاما على خبزه ، وجلس توم أرضا على ضوء النار وأخرج كتابه المقدس ـ لأنه كان في حاجة الى ما يعزيه .

وقالت احدى المرأتين

ـ ما هذا ؟

قال توم

ـ كتاب مقدس

ـ رباه ! لم أر كتابا مقدسا مذ كنت فى كنتك ٠

وقال توم فى اهتمام

ـ هل نشأت فى كنتك ؟

قالت المرأة وهى تتأوه

ـ نعم ، ونشأة طيبة أيضا وما كان يخطر ببالى قط هذا المصير الذى صرت اليه ٠

وقالت المرأة الأخرى

ـ ولكن ما هو هذا الكتاب ؟

ـ انه الكتاب المقدس

قالت المرأة

ـ بالله ما هو ؟

قالت الأخرى

ـ آه ، انك لم تسمعى به قط ؟ أما أنا فكنت أسمع سيدتى تقرؤه أحيانا فى كنتك ولكن رباه ! اننا لا نسمع هنا الا الكذب والحلف ٠

وقالت المرأة الأولى فى فضول حين رأت توم منكبا عليه

ـ على أى حال اقرأ لنا شيئا منه !

وقرأ توم

ـ « تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم

قالت المرأة

ـ هذه كلمات طيبة من صاحبها ؟

قال توم

ـ الرب

قالت المرأة

ـ وددت لو عرفت مكانه لأمضى اليه يلوح لى أننى لن أجـــد الراحة ثانية نقد تقرح جلدى ، وأنا أقضى كل يوم فى رعدة وخوف وسامبو لا يفتأ يصيح بى لأننى لا أجنى القطن عــلى ما يشتهى من

سرعة ، وقد ينتصف الليل أحيانا قبل أن آكل عشائى ويخيل الى أننى لا أكاد أرقد وأغمض عينى حتى أسمع صـوت البوق يوقظنى لأهب فى الصباح وأعاود الكرة من جديد لو علمت أين يكـــون الرب لأخبرته

قال توم

ـ انه هنا ، انه فى كل مكان

قالت المرأة

ـ انك والله لن تقنعنى بهذا الذى تقول ! فأنا أعلم أن الرب ليس هنا ومع ذلك فلا فائدة من الكلام سأمضى الآن لأرجع الى خصى وأنام ان استطعت النوم

ومضت المرأتان الى خصيهما ، وجلس توم وحده الى النار المدخنة التى كانت ترتعش حمراء على وجهه وطلع القمر الفضى الجميل فى السماء الأرجوانية وأشرف على الأرض هادئا صامتا كما يشرف الله على هذا المشهد الناطق بالشقاء والظلم ـ أشرف فى هدوء على الرجل الأسود الجالس وحيدا وقد ضم ذراعيه ووضع كتابه على ركبته

« هل الله هنا ؟ » ليت شعرى كيف يستطيع القلب الســاذج أن يحتفظ بايمانه ثابتاً لا يتزعزع أمام هذا الظلم الصارخ والجـــور

الطاحن الذى لا يزجره أحد ؟ لقد احتدمت فى هذا القلب الساذج معركة عنيفة الاحساس العارم بالظلم - والتنبؤ بحياة كلها تعاسة - وحطام الآمال الماضية كلها تضطرب اضطرابا حزينا على مرأى من النفس كأنها جثث الزوجة والولد والصديق تنبعث من الموج المظلم وتصطخب فى وجه البحار المشرف على الغرق ! آه ، أكان من السهل هنا على هذا القلب أن يعتقد ويؤمن ايمانا راسخا بهذه العبارة التى هى الشعار العظيم للايمان بالله ، وهى أن « الله موجود ، وأنه يجازى الذين يطلبونه ؟ »

وقام توم يائسا محزونا ومشى متعثرا الى خصه الذى عين له وكان النائمون المتعبون قد انتشروا على أرضه وأوشك الهواء الفاسد أن يرده على عقبيه ولكن ندى الليل الثقيل كان شديد البرودة وكانت أطرافه مضناة فلف حول جسده بطانية ممزقة كانت على فراشه ، ثم تمدد فوق القش ونام

وسمع فى أحلامه صوتا رقيقا ، لقد تراءى له أنه جالس على المقعد المعشوشب فى الحديقة بجانب بحيرة بونتشارترين ، وايفا تقرأ له من الكتاب مطرقة بعينيها الحادتين وسمعها تقرأ « اذا اجتزت فى المياه فأنا معك وفى الأنهار فلا تغمرك اذا مشيت فى النار فلا تلذع واللهيب لا يحرقك ، لأنى أنا الرب الهك قدوس »

وبدا أن الكلمات تذوب وتتلاشى شيئا فشيئا كأنها الأنغام فى لحن سماوى ، ورفعت الطفلة عينيها العميقتين وثبتتهما عليه بمحبة، فخيل اليه أن أشعة من الدفء والراحة تسرى منهما الى قلبه ، ثم بدت له كأنها وقد طفت بها الموسيقى تطير على أجنحة مضيئة يتساقط منها الترتر وشظايا الذهب كأنها النجوم ، ثم اختفت •

واستيقظ توم أكان هذا حلما ؟ سمه ان شئت حلما ولكن

منذا الذى يزعم أن تلك الروح الصغيرة الحلوة التى كانت فى حياتها حريصة على تعزية الحزانى وتطييب خاطرهم قد حرم الله عليهمـــا القيام بهذه الخدمة بعد موتها ؟

« أنعم بها من عقيدة ،

أن أرواح الموتى

لا تفتأ تحوم على أجنحة الملائكة

من فوق رءوسنا

الفصل الثالث والثلاثون

كاسي

« فهوذا دموع المظلومين ولا معز لهم ومن يد ظالمهم قهر • أما هم فلا معز لهم • »

لم يسلخ توم من الوقت الا قليلا حتى ألم بكل ما يرجوه أويخشاه في أسلوب حياته الجديد ذلك أنه كان عاملا كفئا خبيرا بكل ما يوكل اليه ، سريعا أمينا بحكم العادة والمبدأ جميعا • واذ كان هادئا مسالما بطبعه ، فقد كان يرجو بالجد المتصل أن يجنب نفسه على الأقل بعض شرور وضعه الجديد ولقد شهد من الفساد والتعاسة ما يؤذى النفس ويتلفها ، ولكنه اعتزم أن يمضى فى كده وكدحه بصبر المؤمن مسلما أمره الى الهه القاضى العادل ، دون أن يقطع الأمل فى أن ينفتح له يوما باب النجاة •

ولاحظ لجرى فى صمت ما يؤديه توم من خدمات نافعة ورأى فيه عاملا من الطراز الأول ، ولكنه برغم هذا أحس بكره خفى له — هو الكره الطبيعى الذى يكرهه الشر للخير • ذلك أنه وضح له أنه حين كان يصب قسوته ووحشيته على العاجزين المستضعفين — وما أكثر ما كان يفعل — كان توم يلحظ سلوكه هذا ، ولا عجب فجو الرأى يسرى متدسسا حتى أنه ليجعل الناس يحسون به دون كلام ، والرأى حتى من العبد قد يغيظ سيده كان توم يبدى بشتى الأساليب رقة فى الشعور ، ويعطف على اخوانه فى الآلام عطفا غريبا جديدا عليهم ، وكان لجرى يلحظه بعين شديدة الغيرة والحذر فلقد اشترى توم ليجعل منه آخر الأمر ملاحظا أو رئيسا على فعلته ، يستطيع أن يعهد اليه أحيانا بشئونه يدبرها فى فترات غيابه القصيرة ، وكان الشرط

الأول والثانى والثالث لهذه الوظيفة « القسوة » وعول جرى على أن يقسى قلب توم على الفعلة ما دامت هذه القسوة تعوزه واعتزم أن يبدأ هذه العملية بعد أن قضى توم أسابيع قليلة فى المزرعة

وذات صباح لحظ توم فى عجب وافدا جديدا بين العمـــال وهم يجمعون للعمل فى الحقل ، وكان فى طلعة هذا الوفد ما أثار انتباهه كان الوافد امرأة طويلة ممشوقة ، فى يديها وقدميها رقة ملحوظة وعليها ثياب نظيفة محترمة وبدا على وجهها أنهـــا بين الخامسة والثلاثين والأربعين ، وكان وجها اذا رآه المرء مرة لا ينساه ـ وجه من تلك الوجوه التى تكفينا نظرة واحدة اليها لنعلم بما تنطوى عليه من تاريخ عنيف أليم غريب كانت عالية الجبين وضـــاحته ، وفى أنفها المستقيم البديع وفمها الدقيق ورأسها وعنقها الجميلين ما ينبىء بجمال قديم ، ولكن وجهها كانت تغور فيه تجاعيد الألم والتجلـــد الأبى المرير وكان لونها شاحبا مريضا ووجنتاها نحيلتـــين ومعارفها حادة ، وجسدها كله هزيلا ولكن عينهـــا كانت ألفت ما فيها للنظر ـ عين دعجاء تظللها أهداب طويلة لا تقل عنها سوادا ، فيها يأس حزين ثائر كان كل خط من خطوط وجهها ، وكل انحناءة من انحناءات شفتها الطيعة ، وكل حركة من حركات جسدها ، تحمل كبرياء وتحديا ضاريين أما عينها ففيها ليل بهيم مقيم من العـــذاب والألم ـ تعبير فيه من اليأس وعدم التغير ما يناقض ذلك الاحتقـــار والترفع الذى يفصح عنه مسلكها كله مناقضة رهيبة

ولم يعرف توم من أين أتت ولا من تكون . أما أول ما عرف فهو أنها كانت تسير الى جواره مرفوعة القامة مستكبرة فى غبشة الفجر ولكن فرقة العبيد كانت تعرفها لأنهم أكثروا من التطلع والتلفت نحوها ، وكان هناك تشف واضح وان كظمته هذه المخلوقات المنكودة الرثة الجائعة التى أحاطت بها

قال صوت

ـ وأخيرا أكرهت على العمل معنا ـ لشد ما أغتبط لهذا

وقال آخر

ـ هى ! هى ! هى ! ستعلمين كم يفيدك الشغل يا سيدتى !

ـ سنراها تشتغل

ـ ومن يدرى لعلها أن تأخذ نصيبها من الضرب ليلا مثلنا !

وقال آخر

ـ كم يبهجنى أن أراها تطرح أرضا لتجلد ، سأطفر عندها فرحا !

ولكن المرأة لم تلق بالا الى هذا الذم ، بل مضت لا تلوى ووجهها ينطق بما كان ينطق به من الاحتقار الساخط الغاضب كأنها لم تسمع شيئا وكان توم قد عاش حياته كلها بين قوم راقين مهذبين ، فشعر بفطرته من هيئتها ومسلكها أنها تنتمى الى هذه الطبقة من الناس ، ولكنه لم يدر كيف ولم تردت فى هذه الهوة السحيقة أما المرأة فلم تنظر اليه ولم تكلمه وان ظلت سائرة الى جواره طوال الطريق الى الحقل

وسرعان ما انهمك توم فى عمله ، ولكن المرأة لم تكن بعيدة منه ، فكان كثيرا ما يختلس النظر اليها وهى تشتغل ورأى لتوه أن ما أوتيت من مهارة وخفة طبيعيتين قد خفف عنها الجهد ويسر العمل دون الكثيرين من رفاقها فكانت تجنى فى سرعة ودقة وفى سيمائها من الاحتقار ما يشعر بأنها تزدرى هذا العمل وتزدرى معه الظروف التى فرضت عليها بكل ما فيها من عار واذلال ٠

وألفى توم نفسه فى أثناء النهار يجنى على مقربة من المرأة الخلاسية التى اشتريت معه فى صفقة واحدة ٠ وكان واضحا أنها تعانى عذابا مبرحا وكثيرا ما سمعها توم تضرع الى الله وهى تهتز وترتجف ، وبدا عليها أنها توشك أن تسقط اعياء ٠ فلما دنا منها نقل فى سكون حفنا من القطن من غرارته الى غرارتها

وقالت المرأة وقد بانت عليها الدهشة

ـ لا ، لا تفعل ! ستجر على نفسك بهذا المتاعب

وهنا وصل سامبو • ولاح أنه يحقد على المرأة حقدا شديدا ، فلوح بسوطه وقال فى نبرات خشنة ضارية

ـ ما هذا الذى تصنعين يا لوسى ـ أتغشيننا ؟

ثم رفس المرأة بحذائه الثقيل المصنوع من جلد البقر وهو يفـوه بهذه الكلمات ، وأهوى بسوطه على وجه توم

وعاد توم الى عمله فى صمت ، ولكن المرأة سقطت مغمى عليها بعد أن برح بها الارهاق •

وقال سائق العبيد وهو يبتسم ابتسامة وحشية صفراء

ـ سأردها الى رشدها ! سأعطيها مفوقا يفضل الكافور

ثم أخذ من كم سترته دبوسا وغرزه فى لحمها حتى رأسه • وأنت المرأة وقامت نصف قومة وصاح بها

ـ انهضى أيتها الحيوان واشتغلى افعلى والا أريتك حيلة أخرى !

وبدا على المرأة أنها تنبهت لحظات تنبها قويا غير طبيعى ، وأخذت تشتغل فى نشاط المستيئس

وقال الرجل

ـ أحرصى على أن تمضى على هذا النحـــــو والا جعلتك تتمنين أن تموتى الليلة !

وسمعها توم تقول

ـ أننى أتمنى هذا الآن !

ثم عاد يسمعها تقول

ـ الى متى يا رب ! لم لا تساعدنا يا رب ؟

وتقدم توم نحوها ثانية غير عابىء بما قد يصب عليه من عذاب ، ووضع قطن غرارته كله فى غرارتها

وقالت المرأة

ـ لا تفعل ! انك لا تعرف ما سيصنعون بك !
قال توم

ـ في استطاعتي أن أحتمله
ثم عاد الى مكانه ، وحدث هذا كله في لحظة .

وفجأة رفعت المرأة الغريبة التي وصفناها عينيهـــا السوداوين الثقيلتين وثبتتها عليه لحظة ، وكانت خلال عملها قد قربت من توم قربا أتاح لها سماع كلماته الأخيرة. ثم تنـاولت بعض القطن من غرارتها ووضعته في غرارته قائلة

ـ انك لا تعرف عن هذا البيت شيئا والا ما فعلت هذا ستكف عن معونة أي انسان بعد أن ينقضي عليك شهر هنا ، وستجد أنه لن يكون يسيرا عليك حتى أن تهتم بنفسك وتنجو بجلدك

قال توم

ـ معاذ الله يا سيدتي
وقد خاطب بفطرته زميلته في العمل بهذا اللقب المنطـــوى على الاحترام اللائق بالقوم المهـذبين الذين ألف العيش بينهم

وقالت المرأة في مرارة وهي تمضي في عملها خفيفة سريعة

ـ أن رحمة الله لا تزور هذه البقاع قط
ثم عادت الابتسامة الساخرة ترتسم على شفتيها

ولكن هذا الذى فعلته المرأة رآه ملاحظ العبيد من مكانه في طرف الحقل فأقبل نحوها ملوحا بسوطه

وقال يخاطب المرأة بلهجة التشفى

ـ ماذا ! ماذا ! أنت تغشين ؟ حسبك ! انك الآن تحت ملاحظتي فحذار ، والا أخذت حظك من سوطي هذا !

وأومضت العينان السوداوان فجأة بنظرة كأنها البرق الخاطف ، والتفتت المرأة اليه وقد ارتجفت شفتها وانتفخ أنفها وتصلب جسدها ثم حدجته بنظرة تشتعل غضبا واحتقارا قائلة

ـ أيها الكلب ! المسنى ان جرؤت ! ما زال لى من القوة ما يتيح أن أجعل الكلاب تمزق جسدك ، وآمر بحرقك حيا وتقطيعك اربا ! لن يقتضينى هذا الا أن أقولها كلمة واحدة !

قال الرجل وقد بان عليه الجبن

ـ اذن لم جئت الى هنا ؟

ثم تقهقر خطوة أو خطوتين فى وجوم وهو يقول

ـ اننى لم أقصد بك أذى يا مس كاسى !

قالت المرأة

ـ اذن فابتعد !

والحق أن الرجل بدا شديد الميل الى الاهتمام بعمل غير هذا فى الطرف الآخر من الحقل فهرول اليه على عجل

وعادت المرأة فجأة الى عملها ، وأخذت تشتغل فى سرعة حيرت توم أشد الحيرة وكأن فى يدها سحرا وقبل أن ينصرم النهار امتلأت غرارتها واكتظت وتكدس القطن فوقها وأخذت منها غير مرة وأضافت بسخاء الى غرارة توم وبعد الغروب بكثير سار رتل القافلة المكدودة كله وعلى رءوسهم السلال الى البناء المخصص لخزن القطن ووزنه وكان لجرى هناك مشغولا بالتحدث مع الملاحظين

قال سامبو

ـ ان توم هذا سيسبب لنا عنتا شديدا ، فقد ظل ينقل من قطنه الى غرارة لوسى ـ انه لا بد مشعر الزنوج يوما من الأيـــــام بأنهم مظلومون اذا لم يراقبه سيدى !

وقال لجرى

ـ تبا للأسود اللعين ! لا بد من ترويضه ، أليس كذلك ياغمبن

وندت عن الزنجيين ابتسامة صفراء رهيبة لهذه الاشارة
وقال كمبو

ـ أي أي ! ليس كالسيد لجـــرى فى تأديب العصـــاة الشيطان نفسه لا يستطيع أن يبذ السيد فى هذا !

ـ حسن يا غلمان ، ان خير علاج له أن يجلد الجلـــد اللازم حتى يتغلب على أفكاره الخاطئة لابد من ترويضه !

ـ والله ان سيدى سيجد مشقة فى استلال هذه الأفكار منه !

قال لجرى وهو يدير قطعة التبغ فى فمه

ـ ومع ذلك فلا بد من أن أستلها منه

وقال سامبو

ـ هذه المرأة لوسى ـ انها أعصى نساء المزرعة وأكثرهن مشاغبة !

ـ حذار يا سام فانى موشك أن أكون لى رأيا فى سبب ســـخطك على لوسى

ـ حسن ، ان سيدى يعرف أنها عصته ورفضتنى بعد أن أمرها تتخذنى رجلا لها

قال لجرى وهو يبصق

ـ لولا زحمة العمل لجلدتها حتى تخضع ولكن هذه الزحمـــة لا تجعل من الحكمة عقابها الآن انها رقيقة الجسد ، ولكن هـؤلاء النساء الرقيقات يحتملن من التعذيب ما يشرف بهن على الموت دون أن ينثنين !

ـ حسن ، ان لوسى كانت مشاغبة كسولا عابسة تأبى أن تشتغل ـ وكان توم يجنى لها قطنها

ـ أفعل هذا حقا ! حسن ، اذن فسيستمتع توم بلذة جلدها بيده . وسيكون هذا تمرينا مفيدا له ثم انه لن يتغطرس على الفتاة مثلكما أيها الشيطانان

وقهقه الشقيان الأسودان هو ، هو ! ها ! ها ! ها !

وكان صوتاهما المنكران فى الحق تعبيرا صادقا عن ذلك الخلق الجهنمى الذى حباهما به لجرى .

ـ ولكن هناك شيء يا سيدى فتوم ومس كاسى ملآ فيما بينهما غرارة لوسى . وأعتقد أن وزنها لن يكون ناقصا يا سيدى !

فأجاب لجرى وهو يضغط على ألفاظه

ـ أنا الذى سأقوم بوزنها !

وانطلقت الضحكة الشيطانية من فم الملاحظين مرة أخرى وأضاف قائلا

ـ كذا ! لقد أدت مس كاسى عمل يومها
ـ انها تجنى كالشيطان وزبانيته أجمعين !
قال لجرى

ـ أحسب أنهم جميعا يسكنونها !

ثم اتجه الى حجرة الميزان وهو يزمجر ويسب سبا قذرا

***

وأخذت المخلوقات المضناة الواهنة تلتف فى بطء وتدخل الحجرة وكان كل منهم يقدم سلاله للميزان فى تردد وخنوع

وكان لجرى يدون المقادير على لوح اردوازى ألصقت على جنبه قائمة بالأسماء .

ووزن سلة توم وقبلت وتطلع توم فى قلق إلى نجاح المرأة التى عطف عليها

وتقدمت المرأة وهى ترتجف ضعفا وسلمت سلتها وكانت كاملة الوزن كما وجدها لجرى ، ولكنه قال متظاهرا بالغضب

ـ ماذا أيتها الحيوان الكسول عجز مرة أخرى ! قفى جانبا فستنالين عقابك سريعا !

وانبعثت من المرأة أنة اليأس المبرح ، وجلست على لوح من

الخشب ثم تتقدمت المرأة المسماة كاسى ، فسلمت سلتها فى كبرياء وعدم اكتراث ونظر لجرى الى عينيهـــا وهى تسلمها نظرة فيها سخرية وفيها تساؤل •

وثبتت المرأة عينيها عليه لا ترفعهما ، وتحركت شفتاها حـــركة طفيفة ، ثم قالت شيئا بالفرنسية ولم يفهم أحد هذا الذى قالته ، ولكن وجه لجرى علته غبرة شيطانية وهى تتكلم ، ورفع يده نصف رفعة كأنه يريد أن يضربها ـ ولكنها نظرت الى الحركة باحتقار ضار وهى تتحول عنه وتنصرف •

قال لجرى

ـ والآن تعال يا توم أنت تذكر قـــولى لك اننى لم أشترك لأجعلك عاملا كسائر العمال ، فأنا أريد أن أرقيك وأجعلك ملاحظـا عليهم ويحسن أن تبدأ الليلة تمرينك على هذا العمل الجديد فخذ الآن هذه الفتاة واجلدها وأحسب أنك رأيت من الجلد ما يكفى لتبصيرك بالطريقة •

قال توم

ـ أرجو عفو سيدى ، وآمل ألا يكلفنى هذا • فهو ما لم أعتده ـ لم افعله قط ـ ولا أستطيع فعله بحال

قال لجرى وهو يتناول سوطا من جلد البقر

ـ ستتعلم أشياء كثيرة لم تكن تعرفها قط قبــــل أن أفرغ من ضربك !

ثم أهوى بضربة قاسية على خده أتبعها بوابل من الضربات

وقال وقد أمسك ليستريح

ـ حسبك ! والآن أتقول أنك لا تستطيع فعله ؟

قال توم وهو يرفع يده ليمسح الدم الذى كان يقطر من وجهه

ـ نعم يا سيدى اننى مستعد للعمل ليل نهار ، مستعد للعمل

ما دام في نفس يتردد   الشيء لا أشعر بصواب فعله ، ولن أفعله يا سيدي ــ لن أفعله ٠

وكان لتوم صوت شديد اللطف والحنان ، وطريقة في الخطاب مشربة بالاحترام ، فظن لجرى أنه سيخضع ويستسلم في غير مشقة٠ فلما فاه بهذه الكلمات الأخيرة سرت الدهشة في كل انسان   أما المرأة المسكينة فأطبقت يديها وقالت « يا رب ! » ، ونظر الجميع بعضهم الى بعض على الرغم منهم وهم يأخذون أنفاسهم كأنما يستعدون للعاصفة التي توشك أن تنفجر

وبدا على لجرى الذهول والارتباك ، ولكنه في النهاية انفجر قائلا

ــ ماذا   أنت أيها الحيوان الأسود اللعين ! أنت تقول لي انك لا تراه صوابا أن تفعل ما آمرك به ؟ ومالكم أيها المواشي اللعينة وللرأى في الصواب وعدمه ؟ سأضع لهذا حدا ! فماذا تظن نفسك ؟ لعلك يا سيد توم تظن نفسك « جنتلمانا » حتى تقول لسيدك رأيك فيما هو صواب وما هو خطأ ! اذن فأنت تزعم أن من الخطأ جلد الفتاة !

قال توم

ــ أظن ذلك   فالمخلوقة المسكينة مريضة ضعيفة ، وفي جلدها قسوة بالغة ، وهو ما لن أفعله قط ، ولن أبدأ في فعله ٠ ان أردت أن تقتلني يا سيدي فافعل   أما أن أرفع يدي على أي مخلوق هنا ، فذلك ما لن أفعله ــ وأنا أؤثر أن أموت قبل أن أفعله !

وكان توم يتكلم في صوت هادىء ولكن في مضاء لا يخطئه السامع٠ واهتز لجرى غضبا ، ولمعت عيناه الخضراوان في ضراوة ، والتوى حتى عارضاه من سورة غضبه ، ولكنه كبح رغبته القوية في البطش بتوم فورا كما يكبح الوحش الكاسر رغبته وهو يعبث بفريسته قبل أن يلتهمها ، وراح يتهكم بتوم تهكما مريرا

ــ ما شاء الله ، هاكم أولاء كلبا تقيا ألقى أخيرا بيننا نحن الآثمة!

قديس ، وسيد مهذب ، يحدثنا نحن الخطاة عن آثامنا ! لابــد أنه مخلوق كلى القداسة ! أنت أيها الوغد الذى تزعم أنك تقى ورع ـ ألم تسمع قط ما قيل فى كتابك « أيها الخدم أطيعوا ســادتكم ؟ » ألست سيدك ؟ ألم أدفع ألفا ومائتى دولار نقدا وعدا لكل مايحتويه جلدك هذا الأسود الملعون !

ثم قال وهو يشفع قوله بركلة نتوم من حذائه الثقيل

ـ ألست اذن ملكى ، جسدا وروحا ؟ قل لى !

ولكن هذا السؤال الذى وجه الى توم وهو فى أعماق عذابه البدنى ، وقد أحنى جسده الظلم الوحشى أطلق شعاع الفرح والانتصار فى نفسه فشد قامته وقال وهو ينظر الى السماء فى شوق والدموع تختلط بدمه المتساقط على وجهه

ـ لا ! لا ! لا ! ان نفسى ليست ملكك يا سيدى ! انك لم تشترها ـ ولا تستطيع أن تشتريها ! لقد اشتراها وأدى ثمنها من يستطيــع المحافظة عليها ومهما يحدث مهما يحــدث فلن تستطيع أن تؤذينى

وقال نجرى فى سخرية

ـ لا أستطيع ! سنرى ـ سنرى ! أنت يا سامبو ، وأنت يا كمبو ، أعطيا هذا الكلب « علقة » لا يفيق منها هذا الشهر

وما كان أجدر الزنجيين الماردين اللذين أمسكا الآن بتوم وعلى وجهيهما فرح شيطانى بأن يكونا الصورة المجسمة لقوى الظـلام وصرخت المرأة المسكينة فرقا ، وقام الكل كأنما يحفزهم حافز واحد ، بينما أخذ الزنجيان يجرانه من مكانه وهو مستسلم لا يقاوم

الفصل الرابع والثلاثون

قصة المرأة المولدة

« فهوذا دموع المظلومين ••• ومن يد ظالميهم قهر •• فغبطت أنا الأموات الذين قد ماتوا منذ زمان أكثر من الأحيـــاء الذين هم عائشون بعد • »

كان الليل قد مضى أكثره وتوم ملقى يئن وينزف فى حجرة قديمة مهجورة فى المحلج ومن حوله قطع الآلات المحطمة ، وأكـــوام القطن التالف ، ونفايات غير هذه تجمعت أكواما

وكان الليل رطبا ثقيلا ، وحفل الهواء الكثيف بآلاف من البعوض الذى زاد جراحه ألما على ألم ، وفاضت كأس آلامه بعذاب يفوق كل عذاب ــ هو عذاب الظمأ الذى يشوى جسده •

وكان توم المسكين يضرع الى الله فى عذابه

« أيها الاله الصالح ! اعطف وانظر الى ــ هبنى الانتصار ! ــهبنى الانتصار على كل شىء ! »

واذا وقع أقدام فى الحجرة التى من خلفه ، ونور فانوس يسطع على عينيه

ــ من هناك ؟ بربكم اعطونى شربة ماء !

ووضعت المرأة كاسى فانوسها ــ لأنها هى التى دخلت الحجرة ــ، وسكبت ماء من قارورة ثم رفعت رأسه وأعطتـــه شربة •• وشرب الكأس تلو الكأس فى شغف محموم

وقالت له :

ـ اشرب كما يحلو لك لقد جربت هذا الظمأ وليست هذه أول مرة خرجت فيها ليلا أحمل الماء لأمثالك

وقال توم بعد أن فرغ من الشرب :

ـ شكرا لك يا سيدتى

قالت فى مرارة

ـ لا تدعنى سيدتك ! فما أنا آلا جارية شقية مثلك ـ بل أشد هوانا مما يمكن أن تنحدر اليه !

ثم قالت وقد اتجهت الى الباب وسحبت داخل الحجرة فراشا صغيرا من قش نشرت فوقه قطعا من كتان بللت بالماء البارد :

ـ ولكن حاول الآن أيها المسكين أن تتقلب فوق هذا

ولم يستطع توم أن يأتى بهذه الحركة الا بعد لأى لأن الجروح والكدمات صلبت جسده ، ولكنه حين فعل أحس شيئا من الراحة بفضل هذا الملطف لآلام جروحه

ومضت المرأة تعالج جروح توم بشتى الطرق التى علمها اياها طول خبرتها بضحايا القسوة فلم يلبث أن خفت آلامه قليلا •

وقالت بعد أن رفعت رأسه فوق كومة من القطن التالف استخدمتها وسادة له

ـ والآن هذا قصارى ما أستطيع مساعدتك به •

وشكرها توم وجلست المرأة أرضا وضمت ركبتيها ولفت ذراعيها عليهما ثم حدقت بعينيها أمامها وقد ارتسم على وجهها شعور المرارة والألم ووقعت قبعتها خلفها فتساقطت غدائر متموجة طويلة من الشعر الفاحم حول وجهها الحزين الغريب

وأخيرا انفجرت قائلة

ـ لا فائدة أيها المسكين ! لا جدوى مما كنت تحاول فعله • لقد كنت رجلا شجاعا ـ وكان الحق فى جانبك ، ولكن المقاومة عبث لا

طائل تحته فقد وقعت فى يد الشيطان ، وهو أقوى منك ؟ ولابد لك من الاستسلام !

الاستسلام ! ألم يهمس بهذا من قبل ضعف الانسان وعذابه الجسدى ! وجفل توم ، لأن المرأة المرورة بعينيها الوحشيتين وصوتها الحزين بدت له صورة متجسدة للتجربة التى كان يصارعها ٠

وأخذ يئن قائلا

ــ رباه ! رباه ! كيف يمكن أن أستسلم ؟

وقالت المرأة فى ثبات

ــ لا جدوى من ندائك ربك ٠٠ أظن أن كل شىء ضدنا ، السماء والأرض ، كل شىء يدفعنا الى الجحيم ٠ فلم لا نذهب اليه ؟

وأغمض توم عينيه واقشعر بدنه لسماعه هذه الألفاظ الكافرة المظلمة

وقالت المرأة

ــ أنت لا تعرف عن هذا الأمر شيئا ، أما أنا فأعرف لقد عشت فى هذا البيت خمس سنوات ، عشت تحت أقدام هذا الرجل بجسدى وروحى ، وانى لأمقته مقتى للشيطان ! فها أنتذا فى مزرعة منعزلة تبعد عن أقرب مزرعة عشرة أميال من المستنقعات ، وليس هنا شخص أبيض واحد يمكن أن يدلى بشهادته لصالحك وان أحرقوك حيا ــ أو ألقوك فى سائل مغلى ، أو مزقوك اربا ، أو أطلقوا عليك الكلاب تنتهشك ، أو علقوك وساطوك حتى تموت ٠ ليس هنا قانون يستطيع أن يعينك أو يعين أحدا منا ٠ ثم ما ظنك بهذا الرجل ! ليس على الأرض شىء يحجم عن عمله ٠ ولو أننى رويت على مسامع أى انسان ما شهدت هنا وما عرفت لوقف شعره واصطكت أسنانه ــ ولا جدوى من المقاومة ! أتحسبنى كنت راغبة فى العيش معه ؟ ألم أكن امرأة نشئت تنشئة رقيقة مهذبة ، وهو ــ رباه ! من كان هذا ، ومن يكون؟ ومع ذلك فقد عشت معه هذه السنين الخمس ، ولعنت كل لحظة

من حياتى ـ لعنتها ليل نهار ! وها هو ذا الآن يأتى بأخرى جديدة فتاة صغيرة لا تتجاوز الخامسة عشرة ، ربيت على التقوى كما تقول علمتها سيدتها الطيبة أن تقرأ الكتاب المقدس ، وقد جلبت معها كتابها ـ فلتمض الى الجحيم ! »

وضحكت المرأة ضحكة متوحشة حزينة رنت فى أرجاء المخزن المتهدم العتيق رنينا عجيبا شاذا

وأطبق توم يديه فقد بدا له كل شىء مظلما مرعبا ثم انفجر قائلا

ـ رباه ، رباه ! هل نسيتنا تماما نحن المخلوقات المسكينة ؟ أعنى اللهم فقد أشرفت على الهلاك !

ومضت المرأة فى حديثها صارمة لا تلين

ـ ومن هم زملاؤك هؤلاء الكلاب السفلة المنكودون حتى تتعذب بسببهم ؟ ان أحدا منهم لا يتردد فى أن ينقلب عليك عند أول فرصة تتاح له ، وكلهم أحط وأقسى ما يكون الانسان معاملة لأخيه ، فلا فائدة فى معاناتك العذاب تحاشيا لايذائهم

قال توم

ـ يا للمساكين ! ومن الذى جعلهم قساة ؟ واذا أنا استسلمت اعتدت هذا ، وأصبحت شيئا فشيئا مثلهم تماما • لا ، لا ياسيدتى! لقد خسرت كل شىء ـ الزوجة ، والولد ، والبيت ، والسيد الرحيم ـ ولو امتد به الأجل أسبوعا آخر لوهبنى حريتى ، خسرت كل شىء فى هذا العالم ، وضاع من يدى الى الأبد ـ والآن ليس فى وسعى أن أخسر السماء أيضا ، لا ، لا أستطيع فوق هذا كله أن أصبح شريرا !

قالت المرأة

ـ ولكن محال أن يحاسبنا الله على هذه الخطيئة • انه لن يحاسبنا ما دمنا مكرهين عليها • انه يدين الذين دفعونا اليها دفعا •

قال توم :

ــ نعم ، ولكن هذا لن يمنعنا من أن نصبح أشرارا ، ولو أنني صرت قاسي القلب كسامبو « شريرا نظيره ، لما أهمني كثيرا كيف صرت الى هذه الحال ، انما المهم أنني سأصير اليها ــ هذا هو الذي أخشاه

ونظرت المرأة الى توم نظرة فزعة زائغة كأن خاطرا جديدا فاجأها وأنت أنين الثكلى ثم قالت

ــ رحماك اللهم ! انك تقول الحق ! أواه ــ أواه ــ أواه ! ثم سقطت على الأرض تئن وتتوجع كالمطحون يتلوى من عذاب النفس الشديد .

وكان سكون ترددت فيه أنفاسهما ، ثم قال توم بصوت ضعيف

ــ أرجوك يا سيدتي

وقامت المرأة فجأة وقد استعاد وجهها ما كان يرتسم عليه عادة من حزن وصرامة .

ــ أرجوك يا سيدتي ، لقد رأيتهم يلقون بمعطفي في هذا الركن ، وفي جيب المعطف كتابي المقدس ــ فهل لسيدتي أن تأتيني به

ومضت كاسي وأتت به وفتح توم لتوه الكتاب وأخرج فقرة كان قد وضع تحتها خطوطا ثقيلة ، وظهر على صفحتها البلى ، وهي تصف المشاهد الأخيرة في حياة المسيح

ــ هل لسيدتي أن تتفضل فتقرأ هذا ــ انه يروي الظمأ خيرا من الماء !

وتناولت كاسي الكتاب في جفاء وكبرياء ونظرت الى الفقرة ثم تلت في صوت رقيق ونبرات جميلة قصة العذاب والمجد المؤثرة وكان صوتها يتهدج مرات وهي تقرأ ، وكان أحيانا يخونها تماما فتقف متصنعة الهدوء حتى تملك نفسها ولما بلغت العبارة المؤثرة التي استغفر فيها المسيح لأعدائه ألقت الكتاب أرضا ودفنت وجهها في غدائر شعرها الكثيفة ثم انخرطت في البكاء العنيف

وكان توم أيضا يبكى ، وتصدر عنه أحيانا أنات مكتومة ٠

قال

ـ لو أننا استطعنا أن نسمو الى هذا المستوى ! لقد كان هذا يبدو طبيعيا بالنسبة له ٠ وعلينا أن نصارع صراعا شديدا لنبلغه ! ـ أيها السيد المسيح أعنا !

وعاد توم بعد لحظة الى الكلام

ـ سيدتى ، أرى أنك تفوقيننى فى كل شىء ، ولكن هناك شيئا واحدا قد تتعلمه سيدتى حتى من توم المسكين ٠ لقد قلت أن الله ترك أعداءنا يظلموننا ويبطشون بنا ولكن انظرى الى ما حل بالمسيح ، ألم يكن دائما فقيرا مسكينا ؟ وهل بلغ أحدنا ما بلغ من فقروتواضع؟ ان الله لم ينسنا ـ وأنا واثق من هذا ٠ فالكتاب يقول ان كنا نتألم مع المسيح فسنملك أيضا معه ، ولكن ان كنا ننكره فانه هو أيضا سينكرنا ألم يتألموا كلهم ! المسيح وتابعوه جميعا ؟ ان الكتاب يروى كيف أنهم رجموا ونشروا وطافوا فى جلود غنم وجلود معزى ، مكروبين مذلين فالألم لا يبرر الظن بأن الله انقلب علينا ، بل العكس تماما اذا كنا نستمسك به ولا نستسلم للإثم

قالت المرأة

ـ ولكن لم يضعنا حيث لا نستطيع أن نتقى الخطيئة ؟

قال توم

ـ أظن أننا نستطيع اتقاءها

قالت كاسى

ـ سترى فماذا أنت صانع ؟ غدا سيعيدون الكرة عليك لقد شهدت فعالهم كلها ، ولا ينبئك مثل خبير ٠ انى لا أستطيع أن أحتمل التفكير فيما سينزلونه بك ـ وسيكرهونك على الاستسلام فى النهاية

قال توم

ـ يا الهى ! آنك ستزعى روحى ؟ ارعها ولا تدعنى أستسلم

قالت كاسى

ـ وا أسفاه ! طالما سمعت هذا الصراخ والتضرع من قبل ، ومع ذلك فقد حطموا وسحقوا ها هى ذى ايملين ، تحاول أن تثبت فى صراعها ، وها أنتذا تحاول ـ ولكن ما الفائدة ! عليك أن تستسلم والا قتلوك جزءا فجزءا •

قال توم

ـ فلأمت اذن ! فمهما طال تعذيبهم أياى فلن يستطيعوا درءالموت عنى يوما ما ! ـ وبعد ذلك لن يستطيعوا أن يفعلوا بى شيئا انى أفهم ما أقول ، وأنا مصمم عليه ! وأعلم أن الله سيعيننى ويقودنى فى محنتى هذه •

ولم تجب المرأة ، بل جلست وعيناها السوداوان مطرقتان ثم غمغمت تقول لنفسها « لعل هذا هو المنفذ ، ولكن الذين استسلموا لم يعد لهم أمل فى الخلاص ! لا أمل اطلاقا ! أننا نعيش فى النتن ، ونصبح قذرين حتى لنشمئز من أنفسنا ! ونحن نتوق الى الموت ،ولا نجرؤ على قتل أنفسنا ! لا أمل ! لا أمل ! لا أمل ! ـ هذه الفتاة ـ إنها فى السن التى كنت فيها آنئذ !

ثم قالت تكلم توم فى سرعة

ـ أنت ترانى الآن ، وترى ما أنا عليه ! ولكننى ربيت فى النعيم• وأذكر أول ما أذكر أننى كنت ألعب وأنا طفلة فى أبهاء فخمة ـ حين كانوا يلبسوننى كأننى دمية ، وكان الأصحاب والزوار يغدقون على الثناء • وكانت هناك حديقة يدخل اليها من منافذ الردهة ، وهناك كنت ألعب لعبة«الاستخفاء» تحتأشجار البرتقالمع اخوتى وأخواتى• ودخلت مدرسة الدير حيث تعلمت الموسيقى والفرنسية والتطريز وما الى ذلك ، فلما بلغت الرابعة عشرة خرجت لأشارك فى مأتم أبى الذى مات بغتة وصفيت أملاكه التى تركها ، فلم يجدوا ما يكاد يكفى لتغطية ديونه ، ولما جرد الدائنون ثروته قيدونى فى قائمة

الجرد ولكن ان أمي كانت أمة ، وكان أبي ينوي دائما أن يهبني حريتي ، ولكنه لم يفعل، ومن ثم فقد سجلوني في القائمة . وكنت على الدوام أعرف من أنا ، ولكنني لم أفكر كثيرا في الأمر فلا أحد يخطر بباله أن رجلا ضخم الجسم قوي البدن يموت فجأة على هذه الصورة. وقد كان أبي بخير قبل أن يموت بأربع ساعات فقط ـ وكان موته باصابة من الاصابات الأولى بالكوليرا في نيو أورلينز وفي غداة المأتم أخذت زوجة أبي أبناءها ومضت الى مزرعة أبيها وخيل الى أنهم يعاملونني معاملة غريبة ، ولكنني كنت أجهل الحقيقة وكان هناك محام شاب تركوه ليسوي أعمال التركة ، فكان يأتي كل يوم ، ويجول في البيت ، ويكلمني في أدب جم . وفي يوم أتى معه بشـاب لم أر أجمل منه ولن أنسى ما حييت تلك الأمسية فقد سرت معه في الحديقة وكنت وحيدة يملأ قلبي الحزن ، وكان هو عطـوفا رقيقا وقال لي انه رآني قبل أن أذهب الى الدير ، وأنه أحبني طويلا، وانه سيكون صديقي وحامي . ولا أطيل عليك ، فقد دفـع الشاب ألفي دولار ثمنا لي وان لم يخبرني بالأمر ، وبذلك أصبحت ملكه ـ وقد صرت ملكه عن طيب خاطر لأنني أحببته .

ثم أمسكت وعادت تقول

ـأحببته ! أواه ! كم أحببت هذا الرجل حقا ! وكم أحبه الآن ـ وسأظل أحبه ما دام في نفس يتردد ! ما كان أجمله وأكرمه وأنبله! لقد أسكنني بيتا جميلا وأحاطني بالخدم والجيـاد والعربات والأثاث والثياب وأعطاني كل ما يمكن أن يشتريه المال ، ولكنني لم أعبأ قط بهذا كله ـ فقد كنت أحبه لنفسه فقط . لقد أحببته أكثر مما أحب الهي ونفسي التي بين جنبي ، وما كنت لأستطيع أن أرد له أمرا مهما حاولت

« ولم ينقصني سوى شيء واحد ـفقد كنت أشتهي أن يتزوجني. وقلت لنفسي انه ان كان يحبني كمـا يزعم لي ، وان كنت أنا ما ظننتني في عينه ، فلابد أنه سيرضى أن يتزوجني ويهبني حريتي ولكنه أقنعني أننا لو استطعنا أن نظل وفيين أحدنا لصاحبه لكان هذا زواجا أمام الله واذا صح هذا ، أفلم أكن زوجة هذا الرجل ؟

ألم أكن وفية له ؟ ألم أمكث معه سبع سنين عرفت فيها كل حركاته وسكناته ، ولم أعش وأتنسم الهواء الا لأدخل السرور الى قلبه ؟ لقد أصابته الحمى الصفراء فكنت أسهر معه ليل نهار مدى عشرين يوما ــ وحدى ــ وأعطيه دواءه كله ، وأصنع له كـل شيء ، وكان يدعونى ملاكه الحارس وقال اننى أنقذت حياته ورزقنا طفلين جميلين كان أولهما غلاما سميناه هنرى وكان سر أبيه ــ عينـان رائعتان وجبين وضاح يتدلى شعره من حوله فى خصـل متموجة وكان له روح أبيه ومواهبه أما طفلتنا اليز فكان أبوها يقول انها تشبهنى ويقول لى اننى أجمل نساء لويزيانا وكان فخورا بى وبطفلتى وكان يحب أن ألبسهما خير ثيابهما ثم يأخذنا جميعا فى عربة مكشوفة للنزهة ، ويسمع تعليقات الناس حين يروننا وكان لا يفتأ يسمعنى العبارات الجميلة التى يرددونها فى الثناء على وعلى ولدى أسفا على تلك الأيام السعيدة ! لقد خلتنى بلغت غاية ما يستطيع انسان أن يبلغ من السعادة ، ولكن ما لبثت أيام النحس أن حلت ذلك أن فتى من أبنـــاء عمومته وفد على نيـــو أورلينز ــ وكان صـــديقه الحميم الـــذى يعتز به ، ولـــكنى منذ رأيتـه للوهلة الأولى شعرت بالخوف منه لسبب لا أعرفه ، لأننى أحسست بأنه سيجر علينا الشقاء ما فى ذلك ريب ولقد أغرى هنرى بأن يخرج معه ، فكان كثيرا ما يسهر فلا يعود الى البيت حتى الثانية أو الثالثة صباحا ولم أجرؤ على الاعتراض بكلمة ، فقد كان فى هنرى من الكبرياء ما جعلنى أخاف الاعتراض وجرأه على ارتياد بيـــوت القمار ، وكان هنرى من ذلك الصنف الذى لا سبيل الى رده عن هذه البيوت اذا دخلها مرة ثم قدمه الى سيدة أخرى ، وسرعان ما رأيت أن قلبه قد انصرف عنى انه لم يخبرنى بهذا قط ، ولكننى رأيته ــ وأدركته ، يوما بعد يوم وشعـرت بقلبى يتحطم ولكننى لم أستطع أن أفوه بكلمة . وهنا عرض الشقى أن يشترينى وطفلى من هنرى ليستطيع هذا الوفاء بديون القمار التى كانت عقبة فى سبيل زواجه على ما يشتهى ، ولقد باعنا فعلا

« فذات يوم أخبرنى هنرى انه ذاهب الى الريف لقضـــاء بعض

مصالحه وأنه سيغيب أسبوعين أو ثلاثة وكان يكلمني بلهجة أرق مما اعتاد ، وقال انه سيعود ولكن كلامه لم ينطل على فقدأدركت أن الساعة قد أتت وكنت أشبه بانسان قد استحال الى حجر ،فلم أستطع أن أنطق بكلمة أو أذرف دمعة

« وقبلني وقبل الطفلين مرارا ثم خرج ورأيته يمتطي جواده ، وراقبته حتى توارى عن نظرى ، ثم سقطت مغشيا على

« ثم أتى هذا الشقى اللعين ! أتى ليتسلم بضاعته وأخبرنى انه اشترانى وطفلى وأرانى عقد الملكية ولعنته أمام الله ، وقلت له اننى أوثر الموت على العيش معه

فأجاب « ما تشائين ولكنك ان لم تسلكى معى سلوكا معقولا بعت طفليك الى حيث لا ترينهما قط • » وقال انه كان فى نيته على الدوام أن يظفر بى مذ رآنى أول مرة ، وانه أغوى هنرى وأوقعه فى الدين عمدا لكى يرضى ببيعى ، ثم أوقعه فى حب امرأة أخرى •وقال ان على أن أدرك بعد هذا الذى فعله كله أنه لن يتخلى عن خطته ارضاء لقليل من الغرور والدموع وما اليها

« وخضعت ، لأن يدى كانتا مغلولتين فقد كان طفلاى فى قبضته وكنت كلما قاومت ارادته فى شيء تحدث عن بيعهما فأكرهنى على ما يشتهى من طاعته • أواه ، يا لها من حياة ! أن أعيش بقلب يتحطم كل يوم — أن أمضى وأمضى فى حبى مع أنه لم يكن فى حقيقته الا شقاء ، ثم أن أقيد جسدا وروحا مع رجل أكرهه • كنت أحب أن أقرأ لهنرى ، وألعب له ، وأرقص له ، وأغنى له ، ولكن كل شيء كنت أصنعه لهذا الرجل كان عبئا ثقيلا على — ومع ذلك فقد خفت أن أرد له أمرا ، فقد كان جبارا عتيا ، وكان فظا مع الطفلين • لقد كانت اليز طفلة هيابة خجولا أما هنرى فكان جريئا أبى النفس كأبيه ، ولم يذله أحد قط لذلك كان يتلمس له الأخطاء على الدوام ويتشاجر معه ، وكنت أعيش اليوم كله فى خوف ورعب •وحاولت أن أجعل الغلام يحترمه — حاولت أن أفصل بينهما ، لأننى كنت شديدة التعلق بالطفلين ولكن هذه المحاولات لم تغننى فتيلا لأنه باع الطفلين جميعا ، ففى يوم أخذنى معه فى العربة المنزهة

فلما عدت الى البيت لم أجد لهما أثر ! وأخبرنى أنه باعهمـــا وأرانى المال ، أرانى ثمن دمهما هنا لاح لى أن كل خير فى فـــر فارقنى فأخذت أهذى وألعن ـ لعنت السماء والانسان ، وأحسب أنه حقا أحس الخوف منى برهة ، ولكنه لم يستسلم بهذه السهولة ، فقد أخبرنى أنه باع طفلى ، ولكن رؤيتى وجهيهما بعد ذلك مرهونة بارادته فاذا لم أهدأ أذاقهما العذاب ألوانا . وأنت تستطيع أن تصنع أى شىء بالمرأة ما دام أطفالها فى قبضتك وهكذا أجبرنى على الخضوع وأكرهنى على الهدوء والمسالمة ، وعللنى بالأمل فى أنه قد يستردهما بالمال يوما ومضت الأمور على هذا النحو أسبوعا أو اثنين . وذات يوم كنت أسير خارج البيت فمررت بالسجن ورأيت جمعا يحتشد حول الباب الخارجى وسمعت صوت طفل ـ وفجأة رأيت ولـدى هنرى يفلت من قبضـــة رجلين أو ثلاثة كانوا يمســـكون به ، وجرى وهو يصرخ ثم أمسك بثوبى فأقبلوا عليه وهم يسـبون ويلعنون أفحش السباب واللعن ، وقال له رجل منهم لن أنسى وجهه ما حييت انه لن يفلت منهم بهذه السهولة ، وانه سيذهب معه الى السجن حيث يلقنه درسا لن ينساه وحاولت أن أتوسل وأتشفع له ـ ولكنى لم أظفر منهم بغير الضحك وصرخ الصبى المسكـين وحدق فى وجهى وتشبث بى الى أن مزقوا ثوبى نصفين وهم ينتزعونه منى وحملوه الى الداخل وهو يصيح « أماه أماه ! أماه وكان هناك رجل واحد بين الواقفين بدا انه يعطف على فعرضت عليه ما كان بيدى من نقود لو تدخل لانقاذ الصبى ، ولكنه هز رأسه وقال أن الرجل قال ان الصبى كان وقحا عاصيا منذ ابتاعه ، وانـه مصمم على تأديبه مرة واحدة وكفى واستدرت ورحت أعدو ، وخيل الى فى كل خطوة فى الطريق أننى أسمع صراخه ودخلت البيت ، وجريت مبهورة الأنفاس الى البهو حيث وجدت بتلـــر فأخبرته بالأمر وتوسلت اليه أن يذهب ويتدخل ولكنه اكتفى بالضحك وقال لى ان الصبى نال جزاءه الحق اذ لابد من تأديبه وترويضه والخير كل الخير فى التعجيل بهذا وسألنى « فماذا تتوقعـــين اذن ؟ »

« وخيل الى أن شيئا فى رأسى انقصف فى هذه اللحظة

بدوار وغضب جنونى وأذكر أننى لمحت على الخوان مدية حادة كبيرة وأذكر فى غير وضوح أننى أمسكت بالمدية وحملت عليه ثم أصبح كل شيء فى عينى ظلاما فى ظلام ، وغبت عن الوعى بعد هذا وظللت على هذا النحو أياما كثيرة

« فلما أفقت وجدتنى فى حجرة لطيفة ــ ولكنها لم تكن حجرتى. وكانت تعنى بى امرأة سوداء عجوز ، وجاء طبيب يعودنى وكنت ألقى أشد العناية وبعد قليل علمت أنه رحل وتركنى فى هـذا البيت لأباع ، وهذا هو سبب شدة اهتمامهم بتمريضى .

« ولم أكن أريد أن أتماثل للشفاء ورجوت ألا أشفى ولكن الحمى فارقتنى على الرغم منى .واستعدت صحتى ، .وأخيرا غادرت الفراش

« ثم جعلونى أرتدى خير الثياب كل يوم ، وكان السادة يختلفون الى البيت ويدخنون لفافات التبغ الكبيرة ويستعرضوننى ويسألون أسئلة ويساومون على شرائى ولكننى كنت فى حال من الوجوم والصمت زهدت المشترين فى فصمم القوم على جلدى بالسوط اذا لم أبد مبتهجة وأهتم بالتلطف مع المشترين وأخيرا جء يومارجل يدعى ستيوارت لاح لى أنه يعطف على بعض العطف وقد أدرك الرجل أن هما ثقيلا مرعبا كان يجثم على صدرى ، وأتى مراراكثيرة ليرانى على انفراد ، وأخيرا أقنعنى بأن أصارحه بأمرى وانتهى به الأمر الى شرائى ووعدنى بأن يبذل قصاراه ليعثر على ولـدى ويستردهما وذهب الى الفندق الذى كان فيه ولدى هنـرى فأخبروه أنه بيع لمزارع فى أعالى نهر بيرل وكان هذا آخـر ما سمعته عنه ثم عثر على مكان ابنتى فقد كانت تقتنيهـا امرأة عجوز فعرض على أصحابها مبلغا ضخما من المال ثمنا لها ، ولكنهم أبوا أن يبيعوها وعرف بتلر أن الرجل يريد الصبية ليردها الى فأرسل الى يقول أننى لن أستردها ما حييت وترفق بى الـكبتن ستيوارت ترفقا جميلا وكان يملك مزرعة فخمة فأخذنى اليها وبعد قليل وفدت الكوليرا ومات الكبتن ومات كل انسان يريد الحياة ــ أما أنا فقد عشت ، مع أننى كنت من الموت قاب قوسين أو

أدنى ثم باعونى وانتقلت من سيد الى سيد ، حتى ذبلت نضارتى وتجعد وجهى وأصابتنى الحمى ثم ابتاعنى هذا الشقى وأتى بى الى هنا ــ وهأنذا كما ترانى

وأمسكت المرأة وكانت قد هرولت فى سردها قصتها بنبرات كلها انفعال وعنف وبدت تارة كأنها توجهها الى توم ، وتارة كأنها تناجى نفسها ولقد بلغت القوة التى كانت تتكلم بها من العنف مبلغا أنسى توم آلام جراحه نفسها وأخذ يراقبها معتمدا على أحد مرفقيه وهى تذرع المكان قلقة ذاهبة الصبر وشعرها الفاحم الطويل يهتز فى ثقل كلما تحركت

وبعد أن سكنت فترة قالت

ــ تقول ان هناك الها ــ الها يطل من عليائه ويشهد هذا كله ان راهبات الدير كن يحدثننى عن يوم للحســــاب تتكشف فيه الأشياء ــ ألن يكون هناك انتقام فى هذا اليوم

« انهم لا يقيمون وزنا لذلك العذاب الذى نقاســيه ــ والذى يقاسيه أبناؤنا ! انه شىء تافه ، ومع ذلك فقد كنت أجوب الطرقات وكأن فى قلبى هذا من التعاسة ما يكفى لاغراق المدينة كلها . كنت أتمنى أن تسقط البيوت على أو تميد الاحجار من تحتى أجل! وسأقف أمام الله يوم الحساب شاهدة على أولئك الذين جلبوا على وعلى طفلى الدمار جسدا وروحا

« حين كنت طفلة كنت أظننى متدينــة كنت أحب الله وأحب الصلاة أما الآن فأنا روح ضائعة تطاردنى الشياطين التى تعذبنى ليل نهار وهى لا تفتــأ تدفعنى قدما فى هــذا الطريق ــ وسأفعل هذا يوما ما ! »

قالت هذا وهى تضم يدها وقد لمع فى عينيها السوداوين الثقيلتين وميض مجنون « سأرسله الى موطنه ــ وبطريق قصير أيضا ــ فى ليلة ما ، ولو أحرقونى حية عقابا لى ! » ورنت فى الحجرة المهجورة ضحكة طويلة وحشية انتهت بنشيج هستيرى ثم ألقت بنفسها على الأرض وهى تنتحب وتتلوى كالمصروع

وبعد لحظات بدا أن النوبة المجنونة قد فارقتها ، ونهضت متثاقلة ولاح أنها تماسكت

وقالت لتوم وهي تدنو من مرقده

ـ هل من خدمة أخرى تريدها أيها المسكين ؟ أتريد مزيدا من الماء ؟

وكان في صوتها وأسلوبها وهي تقول هذا من اللطف والرقة ما بدا نقيضا عجيبا لعنف حديثها السابق

وشرب توم الماء وتأمل وجهها في جد وشفقة .

ـ أواه يا سيدتي ، ليتك تمضين الى ذلك الذي يستطيع أن يهبك الماء الحي !

قالت كاسي

ـ أمضي اليه ! وأين هو ! ومن يكون !

ـ ذلك الذي قرأت لي عنه ـ الله

قالت كاسي وقد سكنت عيناها السوداوان وبدا عليهما الاستغراق في حلم يقظة حزين

ـ كنت أتصوره وأنا صبية ولكنه ليس هنا ! ليس هنا سوى الاثم ، واليأس الطويل الذي لا نهاية له ! أواه !

ثم وضعت يدها على صدرها وتنهدت كأنها ترفع حملا ثقيلا

وبدا على توم أنه يريد العودة الى الكلام ولكنها أوقفته بحركة حاسمة :

ـ لا تتكلم أيها المسكين حاول أن تنام ان استطعت

ثم غادرت المخزن بعد أن قربت الماء منه وقامت بما استطاعت من ترتيبات صغيرة لراحته .

الفصل الخامس والثلاثون

« قد تكون أشياء تافهة تلك التي تعيد الى القلب
همه الثقيل الذي يود أن يطرحه الى الأبد ،
« فقد يجرح القلب صوت ، أو زهرة ،
« وقد تجرحه الريح أو المحيط ـ اذ يضرب
« الأغلال الكهربية التي تربطنا ربطا خفيا • »

(الفصل الرابع من رحلة تشايلد هارولد)

كانت غرفة الجلوس في بيت نجرى غرفة طويلة فسيحة بهـا مدفأة كبيرة عريضة وكان يكسوها فيما سلف من أيـام ورق غال وجيه تدلى الآن من الجدران الرطبة وقد حال لونه وتمـزق وبلى وكانت تنبعث من البيت تلك الرائحة المؤذية الغريبة التي تتألف من خليط من الرطوبة والقذارة والبلى والتي كثـيرا ما يلحظها المرء على البيوت العتيقة المقفلة وكان ورق الجدران قـد تشوه هنا وهناك بما أريق عليه من جعة ونبيذ ، أو انتشرت فوقه مذكرات كتبت بالطباشير وأرقام طويلة جمعت ، كأن انسـانا كان يتمرن على الحساب وكان في المدفأة مجمـرة ملئت بالفحم النباتي المتقد ، لأن الأمسيات كانت تبدو دائما رطبة باردة في تلك الحجرة المترامية الأطراف مع أن الجو لم يكن باردا ، ولأن لجرى كان يريد نارا يشعل منها لفافة كبيرة ويسخن عليها ماء ليصنـع شرابه المسكر «البنش» • وكشف الجمر المتوهج عما في الحجرة من فوضى تدعو الى اليأس ـ سروج ، ولجم ، وأنواع شتى من عـدة

الخيل ، وسياط ، ومعاطف وملابس مختلفة ، كلها مبعثر فى أرجاء الحجرة فى خليط عجيب ، وقد استقرت بينها الكلاب التى أشرنا اليها على ما تشتهى

وكان لجرى يمزج لنفسه قدحا من البنش ، ويصب الماء الساخن من جرة مصدوعة مكسورة الفم وهو يسخط قائلا

ـ تبا لسامبو الذى يخلق أسباب النزاع بينى وبين عمالى الجدد! ان الرجل لن يصلح للعمل قبل أسبوع ـ ونحن فى زحمة الموسم !

وقال صوت من خلف كرسيه

ـ أجل هذا بالضبط ما ينتظر منك ·

وكان الصوت صوت المرأة كاسى التى تسللت اليه وهو يناجى نفسه

ـ ها ! أنت أيتها الشيطانة ! ها أنت ذى قد عدت ، أليس كذلك ؟

قالت فى هدوء

ـ نعم عدت أتيت لأفعل ما أشاء أنا أيضا !

ـ أنت تكذبين أيتها المتمردة ! سأكون عند كلمتى فاما آن تتأدبى أو تمكثى فى أخصاص الفعلة وتشتغلى مثلهم

قالت المرأة

ـ انى لأوثر ألف مرة أن أسكن أقذر الجحور فى مساكن الفعلة عن أن أكون تحت حافرك !

فقال وهو يستدير لها وعلى فمه ابتسامة مغتصبة ضارية

ـ ولكنك فعلا تحت حافرى برغم هذا كله · ذلك بعض العزاء اذن فاجلسى هنا على ركبتى يا عزيزتى واستجيبى لصوت العقل

قال هذا وهو يمسك بمعصمها

وقالت المرأة وقد ومضت عيناها بنظرة جادة في وميضـــها من الوحشية والجنون ما يروع

ـ حذار يا سيمون لجرى

ثم قالت في تؤدة

ـ انك خائف منى يا سيمون ، ولك حق ! ولكن حذار ، لأن بى شيطانا !

ونطقت الكلمات الأخيرة هامسة بها في أذنـــه كأنها فحيـــح أفعى

قال لجرى وهو يدفعها عنه وينظر اليها متململا

ـ اخرجى ! لست أشك في أن بك شيطانا

ثم قال

ـ ولكن لم لا تعودين لطيفة معى كما ألفت أن تكونى ؟

قالت بمرارة

ـ كما ألفت أن أكون ! ثم أمسكت ـ وقد ألجمت لسانها دنيا من المشاعر الحانقة المعتملة في صدرها

وكانت كاسى تبسط على لجرى دائما تلك السيطرة التى تبسطها المرأة القوية المشبوبة العاطفة على أشد الرجال ضراوة ولكنهـــا أصبحت مؤخرا ضيقة الخلق شديدة التململ تحت وطأة عبوديتها البغيضة ، وكان هذا الضيق يتفجر أحيانا جنونا وهذيانا وقد جعلها تعرضها لهذه النوبات مبعث رعب للجرى الذى كان كغيره من الجهلة الأجلاف يفزع من المجانين فزعا خرافيا فلما أتى لجرى بايملين الى البيت ، تأججت من جديد في قلب كاسى المضنى جمرات عواطف المرأة المكظومة ، وانحازت الى صف الفتاة ، وقام بينها وبين لجرى شجار عنيف . واقسم لجرى في سورة غضبه ليرسلن بها الى

الحقل مع الفعلة ان لم تهدأ وأعلنت كاسى فى احتقار مترفع أنها ذاهبة الى الحقل واشتغلت فيه يوما على ما وصفنا لتريه مبلـــغ ازدرائها لتهديده ووعيده

وكان لجرى بينه وبين نفسه متململا طوال يومه لما كان لكاسى عليه من سلطان لا قبل له بالخلاص منه فلما قدمت سلتها عنـد الميزان كان يطمع فى أن تخفف من غلوائها ، وخاطبها فى مزيج من التراضى والازدراء ، ولكنها ردت عليه فى احتقار مرير

وزاد فى حنقها عليه هذه المعاملة الجائرة التي لقيها توم ،فتبعت لجرى الى البيت وليس لها من قصد سوى تعنيفه على ضراوته

قال لها لجرى

ـ ليتك يا كاسى تسلكين مسلكا لطيفا

ـ أنت تتحدث عن المسلك اللطيف وماذا كنت تصنع ؟ أنت الذى لم تؤت من التمييز ولو قدرا يعصمك من الاضرار بعامل من خيرة عمالك فى زحمة المـــوسم لا لشيء الا للتنفيس عن طبعـــك الجهنمى

قال لجرى

ـ لقد كنت فى الحق أحمق اذ أثرت هذه العاصفة • ولكن الغلام كان عنيدا ، فلم يكن بد من ترويضه •

ـ أحسب أنك لن تروضه !

قال لجرى وهو ينهض غاضبا

ـ أحق ماتقولين ؟ أريد أن أعرف هذا ! سيكون هذا أول زنجي غلبنى اذن ! سأحطم كل عظمة فى جسمه حتى أكرهه على الخضوع!

وهنا فتح الباب ودخل سامبو • وتقدم وهو ينحنى ويمد شيئا فى ورقة

قال لجرى :

ـ ما هذا أيها الكلب ؟

ـ انه شيء مسحور ياسيدى !

ـ ماذا ؟

ـ شيء يأخذه الزنوج من الساحرات انه يمنع عنهم الألم حين يجلدون لقد كان يربطه حول عنقه بخيط أسود ٠

وكان لجرى كأكثر من على شاكلته من القساة الفجرة يؤمن بالخرافة فأخذ الورقة وفتحها متململا

وسقط من الورقة دولار فضى وخصلة لامعة طويلة من الشعر الأشقر ـ شعر لف نفسه حول أصابع لجرى كأنه شيء حى

فصرخ الرجل وقد انتابته سورة غضب مفاجئة ، وراح يضرب الأرض بقدمه ويجذب الشعر بعنف كأنه يلسعه

ـ عليك اللعنة ! من أين أتيت بهـــذا ؟ خذه بعيدا ! احرقه ! ـ احرقه ! ب

وكان يصرخ وهو ينتزع الشعر من أصابعه ويطرحه فى الجمر

ـ لم جئتنى بهذا ؟

ووقف سامبو وقد فغر فاه الثقيل وأخذ منه الذهول كل مأخذ٠ أما كاسى فقد تريثت بعد أن كانت تتهيأ لمغادرة الحجرة ونظرت اليه فى دهشة تامة

وقال وهو يهدد سامبو بقبضة يده

ـ حذار أن تأتينى بشيء بعد هذا من أدواتك هذه الشيطانية

وتقهقر سامبو بسرعة نحو الباب ، والتقط الدولار الفضى ثم قذف به الى الخارج فى الظلام محطما زجاج النافذة ٠

واغتبط سامبو لأنه نجا بجلده وبعد أن انصرف بدا على لجرى شيء من الخزى لنوبة الفزع التى انتابته ٠ وجلس على كرسـيه فى شراسة وبدأ يرشف قدح البنش فى وجوم ٠

وتأهبت كاسي للخروج دون أن يلحظهـا ، وانسلت من الحجرة لتعنى بتوم المسكين على ما وصفنا

ماذا كان خطب لجرى ؟ وأى سر فى خصلة بريئـة من الشعر الأشقر يرهب هذا الانسان المتوحش الذى ألف كل ضروب القسوة؟ الجواب عن هـذا السؤال يقتضينا أن نعود بالقـارىء الى تاريخ الرجل ان هذا الرجل الفاجر الكافر ، برغم ما يبدو عليه الآن من قسوة وغواية ، أتى عليـه حين من الدهر كانت تهدهـده إمه على صدرها ، وتسمعه الصلوات والترانيم فى مهده ، هذا الرجل ابتـل جبينه اليابس يوما ما بماء العماد المقدس كانت تقوده فى طفولته الباكرة امرأة شقراء للصلاة والعبـادة حين يقرع ناقوس الأحـد

وربت المرأة ولدها الوحيد فى أرض نيوانجلند النـائية بمحبة الأم التى لا تنى ولا تمل ، وبتوسلاتها الصابرة ولـكن لجرى كان ابن أبيه ، وكان الأب رجلا قاسـيا صلبا ضيعت عليه هذه الأم حبـا كانت تغدقه عليه فلا تنال منه جزاء ولا شكورا • واذ كان الغـلام صخابا متمردا شديد الطغيان فقـد ضرب بنصائحها كلهـا عرض الحائط ، ولم يقبل منها لوما ولا توبيخا ، ثم شق عليها عصا الطاعة ملتمسا رزقه فى البحار ولم يعد بعـدها لأمه غير مرة واحـدة ، فتشبثت به بحنين القلب الذى لا يملك الا أن يحب شـيئا ولا يجد شيئا آخر يحبه وسعت بالتوسلات والتضرعات الحـارة الى صرفه عن حياة الاثم وهدايته لما فيه خير روحه الأبدى

وكانت هذه مهلة لجرى للتوبة والندم ، هنـالك دعتـه الملائكة الأبرار ، وأوشك الايمان أن يضىء نفسه ، وأمسكت الرحمة بيده ، ولان قلبه فى صميمه ـ وكان صراع ، ولكن الاثم انتصر ، فرصـد لجرى كل قوى طبيعته القاسية لمقاومة اقتناع ضميره • وراح يسكر ويسب ويلعن ـ وغدا أشر وأضرى مما كان فى أى وقت مضى • وذات ليلة كانت أمه تركع عنـد قدميه وقد برحت بها آلام اليـأس من صلاحه ، فرفسها بعيدا عنه ـ وألقاها على الأرض فاقدة الرشـد وهرب الى سفينته وهو يلعن أبشع اللعنات • ولم يسمع من أنبـاء أمه بعد ذلك الا حين ألقى اليـه بخطاب فى ليلة كان يسمر فيهـا

ويقصف مع جماعة من منادميه وفتح الخطاب فسقطت منه خصلة من شعر متموج طويل والتفت حول أصابعه وأنبأه الخطاب بأن أمه ماتت ، وأنها باركته وغفرت له وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة

ان فى الشعر عرافة رهيبة نجسة تجيل أجمل الأشياء وأقدسها أطيافا مفزعة وكذلك كانت ذكرى هذه الأم المحبة الشاحبة الوجه — ذكرى صلواتها وهى تحتضر ، ومحبتها الغافرة — فقد كان فعلها فى ذلك القلب الأثيم الشرير فعل حكم صادر عليه باللعنة والهلاك ، وقد رافقها ترقب فزع ليوم الحساب والسخط العظيم وأحرق لجرى الشعر ، وأحرق الخطاب ، وحين رآهما فى النيران يئزان ويطقطقان ، ارتجف فى داخله وهو يفكر فى نار جهنم الأبدية . وحاول أن يشرب ويعربد ويسب ليطرد عنه هذه الذكرى . ولكنه كثيرا ما كان يرى فى جوف الليل الذى تدعو هدأته الرهيبة النفس الشريرة لمناقشة ذاتها على كره منها كان يرى هذه الأم الشاحبة تقوم الى جانب فراشه ، ويحس ملمس شعرها الناعم يلتف حول أصابعه ، حتى يتصبب العرق البارد على وجهه ، فيهب من فراشه مذعورا فيا من أدهشك أن تسمع القول فى انجيل واحد ، بأن الله محبة ، وبأنه أيضا نار آكلة ، ألا ترى أن المحبة الكاملة تبدو للنفس السادرة فى غوايتها أشد ألوان العذاب رعبا ، وأنها الحكم المبرم بأشد ألوان اليأس هولا ؟

وقال لجرى لنفسه وهو يرشف شرابه

— تبا له ! من أين أتى بهذا ؟ أقسم أن هذا الشعر شبيه بشعر — من ؟ ولكنى خلتنى نسيت هذا كله لعنت أن كنت أظن أن فى الدنيا شيئا اسمه النسيان على أى حال تبا لهذا كله وسحقا ! اننى أشعر بالوحدة هنا ! أريد أن أدعو ايم انها تمقتنى — يا للنسناسة ! ولكن لا على — سأكرهها على أن تأتى !

وخطا لجرى الى الخارج فى مدخل للبيت فسيح يصعد الى الطابق العلوى بسلم كان فى يوم ما سلما لفافا فخما ، ولكن الدهليز المؤدى اليه كان قذرا مقفرا ، تملؤه الصناديق والمهملات القبيحة المنظر . وبدا أن السلم المجرد من الفرش يلتف فى الظلام الى حيث

لا يعلم أحد ! وكان نور القمر الشاحب يتدفق من خلال نافذة مخطمة فوق الباب ، والهواء مؤذيا قارسا كهواء الكهوف والأقبية :

ووقف لجرى عند أسفل السلم وسمع صوتا يترنم ، وبدا الصوت غريبا كأنه الطيف فى هذا البيت العتيق المهجور ، ولعل سبب ذلك ما أصاب أعصابه من هزة صة ! ما هذا !

ان صوتا حنونا قويا يترنم بترنيمة شائعة بين العبيد

« أواه ، سيكون بكاء ، بكاء ، بكاء

أواه ، سيكون بكاء عند كرسى قضاء الله ! »

وقال لجرى

ـ لعنت الفتاة ! سأخنقها

ثم نادى فى فظاظة

ـ ايم ! ايم !

ولكن لم يجبه غير صدى ساخر من جدران الدار ، ومضى الصوت الحنون يترنم

« هنالك يفترق الآباء والأبناء !

هنالك يفترق الآباء والأبناء !

يفترقون الى غير لقاء

ورن فى الأروقة الخاوية قرار اللحن عاليأ واضحا

« أواه ، سيكون بكاء ، بكاء ، بكاء

أواه ، سيكون بكاء عند كرسى قضاء الله

ووقف لجرى . وكان فى حالته ما لو تكشف لنـــاظر لأخزاه ، ولكن جبينه كان يتصبب بقطرات العرق الكبيرة ، وكان قلبه يخفق من الخوف خفقانا شديدا بل انه خيل اليه أنه يرى شيـئا أبيض

يعلو ويومض فى الظلمة المنبسطة أمامه ، وارتجف حين طف برأسه خاطر ظهور أمه الميتة فجأة ٠

وقال لنفسه وهو يتعثر عائدا الى حجرة الجلوس ويجلس « انى على يقين من أمر واحد ، وهو أنه ليس لى بهـذا أوجل شأن بعـد اليوم ! ماذا كنت أريد من ورقته الملعونة ؟ لا شك أن سحرا سيطر على ! فاننى لا أكف عن الارتجاف والعرق ! من أين أتى بهذا الشعر؟ لا يعقل أنه شعرها ! فقد أحرقت ذلك الشعر ، وأنا واثق من أننى فعلت ! يالها من مهزلة أن يبعث الشعر من مرقده ! »

ايه يا لجرى! لقد كانت تلك الخصلة الذهبية مسحورة ، كان فى كل شعرة منها رقية عذاب ورعب لك ، وقد استخدمتها قوة أقوى منك لتغل يديك القاسيتين عن انزال أبلغ ما تشـتهى من أذى وشر بالعاجزين المستضعفين !

وقال لجرى وهو يضرب الأرض بقدمه ويصفر للكلاب

ــ ألا فليستيقظ بعضكم ليؤنسنى

ولكن الكلاب اكتفت بفتح عين واحدة والنظر اليـه فى نعاس ثم عادت فأغمضتها

وقال لجرى

ــ سأدعو سامبو وكمبو الى ليغنيا ويرقصا احـدى رقصاتهمـا الجهنمية ويطردا عنى هذه الأفكار المرعبة ٠

ولبس قبعته ، وخرج الى الشرفة ، ثم نفخ فى بوق كان ينادى به عادة ملاحظيه الأسودين

وقد ألف لجرى أن يدعو هذين الفاضلين كثيرا الى حجرة الجلوس حين يصفو مزاجه ، فاذا أدفأ جسديهما بالويسكى تسلى بجعلهمـا يغنيان أو يرقصان أو يقتتلان كيفما شاء له هواه

وكان الوقت بين الساعة الأولى والثانية بعد منتصف الليـل حين

سمعت كاسى ، وهى راجعة اثر عنايتها بجراح توم المسكين ، أعنف أصوات الصياح والهتاف والنداء والغناء تنبعث من حجرة الجلوس مختلطة بنباح الكلاب وغيره من مظاهر الضجيج والصخب

وأقبلت الى درجات الشرفة ونظرت الى الداخل ، فرأت لجرى وملاحظيه ، وقد ثملوا بالخمر ، يغنون ويضجون ويصيحون ويقلبون الكراسى ويلعبون وجوههم بعضهم لبعض بشتى الصور المنكرة المضحكة

ووضعت يدها الرقيقة الصغيرة على خشب النافذة ، ونظرت اليهم بعينين لا تتحولان وكان فى عينيها السوداوين اذ ذاك عالم من العذاب والازدراء والمرارة القاسية وقالت لنفسها

ـ أيكون اثما أن أنجى العالم من شقى كهذا ؟

وتحولت عنهم فى هرولة ، ودارت حتى وصلت الى باب خلفى ، وتسللت صاعدة ثم قرعت باب ايملين فى رفق

الفصل السادس والثلاثون

ايملين وكاسى

دخلت كاسى الحجرة فوجدت ايملين جالسة فى أقصى أركانها وقد شحب وجهها من فرط الرعب وفزعت الفتاة من الخوف حين دخلت كاسى، ولكنها اذ تبينتها اندفعت اليها وأمسكت بذراعها قائلة

— أوه يا كاسى ، أهذى أنت ! ما أشد سرورى لمجيئك ! كنت خائفة أن يكون — أواه ، انك لا تعلمين أى ضوضاء كريهة كانت تصطخب أسفل الدار طوال المساء !

قالت كاسى فى جفاء

— مفروض أننى أعلم ، فقد سمعتها مرارا وتكرارا

— أواه يا كاسى ! قولى لى — ألا نستطيع أن نبتعد عن هذا المكان ؟ لا يهمنى الى أين — الى المستنقع بين الأفاعى — أى مكان ! ألا نستطيع أن نهرب الى أى مكان بعيد عن هذا البيت ؟

قالت كاسى

— لقد رأيت قدرا كافيا من المحاولات وما تسفر عنه .

قالت ايملين فى لهفة

— اننى لأرضى أن أسكن المستنقعات وأقرض لحاء الشجر طعامالى. أنا لا أخاف الأفاعى ! وخير أن تكون بقربى أفعى من أن يكون هو بقربى

قالت كاسى

ـ لقد قال قولك هذا كثـــيرون من قبلك · ولكنك لن تمكنى من البقاء فى المســـتنقعات ـ فستطاردك الـــكلاب ، وسيعودون بك ، وعندئذ ـ عندئذ ـ

وقالت الفتاة مبهورة الأنفاس وهى تنظر باهتمام الى وجهها

ـ وما الذى يفعله ؟

قالت كاسى

ـ خير لك أن تسألينى ما الذى لا يفعله · لقد تعلم صناعته جيدا بين القراصنة فى جزر الهند الغربية · ولو رويت لك طرفا مما رأيت لطار النوم من عينيك ـ أشياء يتحدث بها أحيانا كأنه يتفكه بهـا لقد سمعت هنا من الصرخات المدوية ما ظل يرن فى أذنى أســـابيع وأسابيع فلا أستطيع الخلاص منه هنـــاك مكان بجوار مســاكن العمال ، تستطيعين أن ترى فيه شجرة سوداء مضروبة ، والأرض من حولها مغطاة بالرماد الأسود سلى أى واحـــد منهم ماذا كان يجرى هناك ترى هل يجرؤ على انبائك بنبئه

ـ أواه ! ماذا تعنين ؟

ـ لن أخبرك اننى أمقت التفكير فيه · وانى أقول لك انه لايعلم الا الله ما قد نراه غدا اذا ثبت هذا الرجل المسكين على الموقف الذى بدأه !

قالت ايملين وقد نضبت من وجنتيها كل قطرة من دمها

ـ هذا فظيع ! أواه ياكاسى ، أخبرينى ماذا أصنع ؟

ـ اصنعى ما صنعت أنا اصنعى خير ما تســتطيعين ـ اصنعى ما لا مفر منه ـ ثم عوضى عنه بالبغضاء والمقت

قالت ايملين

ـ لقد أرادنى على شرب بعض هـــذا البراندى البغيض الـــذى

يتعاطاه ، وأنا أكرهه أشد الكره

قالت كاسي

ــ خير لك أن تشربي كنت أكرهه أنا أيضا ، ولكنني لاأستطيع الآن أن أحيا بدونه • لابد للمرء أن يتعاطى شيئا ــ والأمور لا تبدو فظيعة الى هذا الحد حين تشربين

وقالت ايملين

ــ كانت أمي تحذرني من أن أذوق الخمر

فقالت كاسي وهي تضغط على كلمة « أمك » في نبرات مرة مؤثرة:

ــ كانت أمك تحــــذرك ! وأي فائدة من تحذير الأمهـات ؟ ان مصيركم جميعا الى البيع ، وأرواحكم ملك لمن يشتريكم كائنـــا من كان هـــذا هو الواقع فاشربي اذن البراندي اشربي منه كل ما وسعك شربه ، تصبح الأمور أيسر وأهون

ــ أواه ياكاسي ! اعطفي على !

ــ أعطف عليك ! ألست بعاطفة عليك ؟ أليست لى ابنـــة ! ــ الله يعلم أين هي الآن ومن مالكها ! لا ريب في أنها سائرة في الطريق الذى سارت فيه أمها من قبل ، والذى لابد أن يسير فيه أبناؤها من بعد ! ليس لهذه اللعنة من نهاية الى أبد الدهر !

قالت ايملين وهي تعصر يديها

ــ ليتني لم أولد قط !

قالت كاسي

ــ تلك أمنية من أماني القديمة ، وقد ألفت أن أتمنـــاها انني أوثر الموت لو جرؤت عليه •

وكانت تنظر الى الظلمة الخارجية بهـذا اليأس الثابت الذى كان تعبير وجهها العادى المألوف في أوقات الهدوء

قالت ايملين

ـ انه لاثم أن يقتل المرء نفسه •

ـ لست أدرى لم ـ انه ليس أشد اثما من أشياء نحياها ونفعلها يوما بعد يوم ولكن الراهبات قلن لى وأنا فى الدير أشياء أخافتنى من الموت لو كان الموت نهاية لحياتنا ، اذن

وتولت ايملين عنها وأخفت وجهها فى يديها

وبينما كان هذا الحديث يدور فى الحجرة ، كان لجرى الذى أثقله السكة والعربدة يغط فى سباته فى الحجرة السفلى • ولم يكن الرجل سكيرا مدمنا للخمر كانت طبيعته القوية الجافية تشتهى ،وتستطيع أن تطيق ، ذلك التنبه المستمر الذى لو تعرض له شخص أضعف منه بنية وأوهن بدنا لحطمه وذهب بعقله ولكن روح الحذر الكامنة فى أعماقه كانت تمنعه من الاسراف فى ادمان هذه الشهوة الى حديفقده سيطرته على نفسه •

على أنه أسلم نفسه للخمر هذه الليلة ، فوق ما ألف أن يسلمها ، وهو يبذل جهوده المحمومة ليطرد عن عقله ما استيقظ فى باطنه من عناصر الهم ووخز الضمير المخيفة فلما طرد خادميه الأسـودين ، ارتمى على أريكة بالحجرة واستغرق فى نوم عميق

ليت شعرى كيف تجرؤ الروح الخبيثة على دخول دنيا النوم ذات الأطياف والأشباح ؟ هذه الأرض التى تقترب حدودها الغامضـة اقترابا مخيفا من مسرح العقوبة الروحى ! لقد حلم لجرى وتراءى له فى حلمه الثقيل المحموم شبح مقنع يقف الى جواره ويضع عليه يدا لينـة باردة وخيـل اليه أنه يعرف الشـبح ، فارتجف وسرت القشعريرة فى جسده ، وان كان الوجه مقنعا ثم خيل اليـه أنه يحس ذلك الشعر يلتف حول أصابعه ، وأنه آنزلق فى رفق حـول عنقه ، ثم ضيق عليه الخناق شيئا فشيئا حتى أفقده القدرة عـلى التنفس ـ ثم خيل اليه أن أصواتا تهمس فى أذنيه ، همسات تجمد لها قلبه رعبا ولاح له بعد هذا أنه على شفا هاوية مرعبة يقـاوم ويجاهد للخلاص منهـا فى خوف قاتل ، فى حين ارتفعت أيد سمراء وأخذت تجذبه من فوقها ، وجاءت كاسى من خلفه تضحك ثم دفعتـه

دفعا وهنا قام ذلك الشبح المقنع الرهيب وأماط اللثام عن وجهه. فاذا هو أمه ، وتولت عنه بعيدا ، فأخذ يهوى ، ويهوى ، ويهوى ، بين ضجيج مختلط من الصيحات والأنات والضحكات الشـيطانية العالية ـ ثم استيقظ لجرى

كانت حمرة الفجر تنساب الى الحجرة فى هـدوء . وكان كوكب الصبح واقفا يطل على الأثيم بعين ضيائه المقدسة الجليلة من السماء المشرقة بأى رواء ، وجلال ، وجمال ، يولد كل يوم جـديد ، كأنه يقول للانسان البليد الجامد الحنق « انظر ! ان أمامك فرصـة أخرى ! جاهد لتظفر بالمجد الخالد ! » وليس هنـاك كلام ولا لغة لا يسمع فيها هذا الصوت ، ولكن الرجـل الشرير المستهتر أصم أذنيه . وأفاق من نومه وهـو يسب ويلعن فأى معنى تحمله له صفرة الذهب ولون الأرجوان ، معجزة الصـباح التى تتجدد كل يوم ؟ وأى قيمة فى نظره لقدسية هذا الكوكب الذى قدسه المسيح حين جعله رمزا له وشعارا ؟ لقد أبصر هذا الانسان المتوحش دون أن تستنير بصيرته ، وسار متعثرا الى الأمام وصب قدحا من البراندى ثم شرب نصفه

وقال لكاسى التى دخلت آنئذ من باب مقابل :

ـ لقد قضيت ليلة جهنمية !

أجابت فى جفاء

ـ وستقضى الكثير من أشباهها عما قريب

ـ ماذا تعنين أيتها الفاجرة ؟

فأجابته بنفس اللهجة

ـ ستعرف ما أعنى يوما ما والآن عندى لك نصيحة ياسيمون.

ـ تبا لك !

قالت فى ثبات وقد أخذت ترتب بعض الأشياء فى الحجرة

ـ نصيحتى لك أن تدع توم وشأنه

ـ وما أنت وذاك ؟

ـ ماذا ؟ الحق أننى لا أعرف . ولكنك ان أردت أن تدفع ألفا ومائتى دولار ثمنا لرجل ثم تستهلكه فى زحمة الموسم لا لشىء الا لشفاء غليلك ، فذلك ليس شأنى لقد فعلت من أجله ما استطعت.

ـ أفعلت ؟ وبأى حق تتدخلين فى شئونى

ـ لا حق لى طبعا لقد وفرت عليك بضعة آلاف من الدولارات مزارا بالعناية بعمالك ـ وهذا جزائى منك على صنيعى فاذا جاء محصولك أقل فى السوق من محصول أى منهم فأحسبك لن تخسر رهانك ؟ ولن يزدعيك تومكنز فيها أظن ـ وستدفع رهانك كما يدفعه أى رجل شريف ، أليس كذلك ؟ أظننى أراك تفعل هذا !

وكان لجرى ككثيرين من أصحاب المزارع يحلم بشىء واحد ـ هو الظفر بأوفر محصول ـ وكان قد راهن الكثيرين على المحصول الحاضر فى المدينة المجاورة لضيعته . لذلك لمست كاسى بحديثها الذى ساقته بلباقة المرأة الوتر الوحيد الذى كان يمكن أن يهتز فى داخله

وقال لجرى

ـ حسن ، سأكتفى بما نال من عقاب ، ولكن عليه أن يطلب عفوى ويعد بأن يسلك خيرا مما سلك

قالت كاسى

ـ انه لن يفعل

ـ لن يفعل ـ ايه ؟

ـ نعم ، لن يفعل

قال لجرى فى احتقار شديد :

ـ أريد أن أعرف السبب ياسيدتى .

ـ لأنه كان على حق ، وهو يعرف هذا ، ولن يقول انه أخطأ

ـ وماذا يهم هذا الذى يعرفه ؟ سيقول الزنجى ما أريد ، والا ـ

ـ والا خسرت رهانك على محصول القطن بابعاده عن الحقل فى زحمة الموسم هذه بالذات •

ـ ولكنه لابد مذعن ـ سوف يذعن بلا ريب • وهل أنا ممن يجهلون طبيعة الزنجى ؟ نسيتضرع كالكلب هذا الصباح

ـ لن يفعل ياسيمون ، انك تجهل هذا النوع قد تقتله قطعة قطعة ـ ولكنك لن تظفر بأولى كلمات الاعتراف من بين شفتيه •

قال لجرى وهو يخرج من الحجرة

ـ سترين ، أين هو ؟

قالت كاسى

ـ انه فى حجرة المهملات بالمحلج

وخرج لجرى من البيت يساوره من الشكوك قدر لم يألفه ،وذلك برغم ما كان فى حديثه لكاسى من قوة واعتداد بالنفس فقد كان عقله متأثرا أبلغ التأثر بأحلام البارحة •التى اختلطت بها تحذيرات كاسى • وعقد نيته على ألا يشهد مخلوق لقاءه بتوم ، وقرر أنه اذا لم يفلح فى اخضاعه بالارهاب والتهديد فسيؤجل انتقامه منه الى وقت أنسب

كان ضوء الفجر الهادىء ـ هذا الجلال الملائكى المنبعث من كوكب الصبح ـ يتخلل النافذة البدائية فى المخزن الذى رقد فيه توم ، وكأنه على هذا الشعاع نزلت هذه الكلمات الجليلة :« أنا أصل وذرية داود ، كوكب الصبح المنير » وكانت انذارات كاسى واشاراتها الغامضة قد أفضت فى النهاية الى ايقاظ روحه كأنها تستجيب لدعوة سماوية بدل أن تفت فى عضده • فلم يعد يعرف الا شيئا واحدا هو أن يوم مماته قد اقترب فى السماء ، فخفق قلبه خفقات هادئة من الفرح والشوق وهو يرى أن هذا الكل العجيب الذى طالما فكر فيه

وتأمل ــ العــرش الأبيض العظيم بقوس قزح المشرق الى الأبد ، الجموع المتسربلة بالثياب البيض ، والتى تنبعث منهــا أصــوات كأصوات المياه الكثيرة ، التيجان وسعف النخل والقيائير ــ كل هذا قد يتمثل لناظريه قبل أن تغرب الشمس مرة ثانية لذلك سـمع صوت مضطهده وهو يدنو منه فلم يرتجف ولم يرتعد

وقال لجرى وهو يرفسه رفسة ملؤها الاحتقار

ــ والآن كيف تجد نفسك ياغلام ؟ ألم أقل لك اننى أسـتطيع أن ألقنك درسا أو درسين ؟ ما رأيك فى هــذا ــ ايه ؟ وكيف أفادك الغرور والكبرياء ياتوم ؟ انك لا تبدو الآن صعب المراس كمــا كنت البارحة ولا تستطيع الآن أن تقدم بعض مواعظك لخاطىء مسكين ــ أليس كذلك ؟

ولم يجب توم

وقال لجرى وهو يرفسه ثانية

ــ قم أيها الحيوان !

ولم يكن هذا باليسير على انسان مرضوض متهافت ، وأخذ اجرى يضحك ضحكا وحشيا بينما كان توم يجاهد للقيام

ــ ما الذى يجعلك نشيطا مرحا هذا الصباح ياتوم ؟ لعلك أصبت البارحة ببرد ؟

وكان توم قد أفلح فى الوقوف على قدميه ، وواجه سيده بجبين ثابت وجأش رابط ٠

وقال لجرى وهو يشتمله بنظره

ــ عجبا انك تستطيع الوقوف ! أعتقد أنك لم تنل بعــد نصيبك الكافي ٠ والآن اركع على ركبتيك ياتوم واطلب العفو منى على ضجة البارحة ٠

ولم يتحرك توم ٠

وقال لجرى وهو يضربه بسوطه :

ــ على ركبتيك أيها الكلب !

قال توم

ــ سيدى لجرى ، لا أستطيع انني لم أفعل الا ما اعتقدته صوابا وسأفعل الشيء ذاته مرة ثانية اذا جاء الوقت انني لن أرتكب عملا قاسيا مهما تكن النتائج

ــ نعم ، ولكنك لا تعرف ما هي النتائج ياسيد توم انك تحسب أن ما نلته شيء مذكور · ولكنى أقول لك انه لا شيء ــ لا شيء اطلاقا · فما قولك في أن تربط في شجرة وتوقد من حولك نار بطيئة ــ ألا يكون هذا لذيذا ياتوم ؟

قال توم

ــ سيدى ، اننى أعلم أنك تستطيع اتيان أعمال رهيبة

ثم شد جسده الى فوق وضم يديه وقال

ــ ولكنك بعد أن تقتل الجسد لن تستطيع أن تفعل شيئا وسيكون بعد ذلك الأبدية كلها !

الأبدية ــ لقد سرت نشوة الكلمة في نفس الأسود وهو ينطقها وسرى معها النور والقوة ، ولكن هزتها سرت في نفس الخاطىء كأنها لدغة العقرب · وحرق لجرى أسنانه غيظا منه ، ولكن الغضب أخرسه وتكلم توم في صوت واضح بشوش كأنه انسان أطلق من قيوده

ــ سيدى لجرى ، بما أنك اشتريتنى ، فسأكون لك خادما أمينا وفيا · وسأبذل لك جهد يدى كله ، ووقتى كله ، وعافيتي كلها ، أما نفسى فلن أبذلها لانسان فان سأستمسك بالله ، وأقدم وصاياه على أى شيء آخر ــ ميتا كنت أو حيا ، فكن على يقين من هذا · سيدى لجرى ، لست أخشى الموت مثقال ذرة · فالموت والحياة عندى سيان

ولك أن تسوطني ، أو تجوعني ، أو تحرقني ـ فلن يكون هـــذا الا تعجيلا باطلاقي الى حيث أريد

قال لجرى في سورة غضبه

ـ ومع ذلك فسأكرهك على الاذعان قبل أن أفرغ من هذا الحديث .

قال توم

ـ سأتلقى العون لن تكرهني قط على الاذعان

وقال لجرى في ازدراء

ـ ومنذا الذى سيعينك ؟

قال توم

ـ ألانه القدير

قال لجرى وهو يصرع توم بضربة واحدة من قبضته

ـ عليك اللعنة !

وفي هذه اللحظة أحس لجرى بيد لينـــة باردة توضع عليـه . فتلفت ـ واذا هي يد كاسى ولكن اللمسة اللينة الباردة أعادت الى ذاكرته حلم البارحة ، فأبرقت فجأة في تضاعيف ذهنه جميع الصور المخيفة التى كان يراها في سهاده ومعهـــا قدر من ذلك الفزع الذى رافقها

وقالت كاسى بالفرنسية

ـ أتريد أن تتصرف تصرف الحمقى ؟ دعه وشــأنه واتركنى وحدى لأرد له القدرة على العـــودة الى العمل في الحقـل ألم تر مصداق ما قلته لك ؟

يقولون ان في التمساح الامريكي ووحيد القرن ، برغم مايحيط بهما من درع واق من الرصاص ، نقطة يسهل منهـــا اصابتهما وهكذا الفجرة الكفرة القساة المستهترون ، فان فيهم عادة هذه النقطة

وهى الفزع من الخرافة

وتحول لجرى بعيدا وقد قرر أن يغضى مؤقتا

وقال لكاسى فى شراسة :

ــ حسن ، افعلى مابدا لك .

ثم قال لتوم

ــ اسمع ! لن أعاقبك الآن لأن ضغط العمل شديد ، ولأنى فى حاجة الى جهود العمال كلهم ، ولكننى لا أنسى قط سأقيد هذا دينا عليك ولابد أن أقتضيه يوما من جلدك الأسود العجوز ــ فخذ حذرك !

وتحول لجرى عنه ثم خرج

ونظرت كاسى وراءه نظرة عابسة وهى تقول

ــ امض ، فحسابك لم يأت بعد ! كيف حالك أيها المسكين ؟

فقال توم

ــ ان الاله أرسل ملاكه فسد فم الأسد هذه المرة

قالت كاسى

ــ هذه المرة يقينا ، ولكن حقده قد حل عليك الآن ، وسيلاحقك على الدوام كأنه كلب يتشبث بحلقك ــ يمتص دمك ويستنزف حياتك قطرة قطرة . اننى خبيرة بالرجل .

الفصل السابع والثلاثون

الحرية

« أيا كانت المواثيق الرهيبة التى ارتبط بها على مذبح الرق ، فانه فى اللحظة التى يلمس فيها تربة هذا البلد المقدسة ، يتهاوى المذبح والمعبود كلاهما فى التراب ، وتفتديه ، وتجدده ، وتحرره ، عبقرية قاهرة هى عبقرية العتق للجميع » ـ كوران .

علينا أن نترك توم هنيهة فى أيدى مضطهديه ريثما نحاول تتبع مصير جورج وزوجته بعد أن تركناهما فى أيد صديقة بمزرعة على الطريق

أما توم لوكر فقد تركناه يئن ويتقلب فى فراش نظيف ناصع البياض من فرش جماعة الكويكر ، تحت رعاية العمة دوركاس الرحيمة ، التى وجدت فى مريضها من سهولة الانقياد ما فى البيزون المريض

ليتصور القارىء امرأة تقية وقورا فارعة القوام ، يظلل غطاء رأسها الموصلى الناصع أمواجا من الشعر الفضى مفروقة على جبين واضح عريض يعلو عينين رماديتين عميقتى التفكير ، وعلى صدرها طوى منديل أبيض كالثلج مصنوع من الكريب طيا أنيقا ، وثوبها الحريرى البنى المصقول يحف حفيفا هادئا وهى تنساب فى الغرفة ذهابا وجيئة .

وقال توم لوكر وهو يطرح عنه فرش السرير فى عنف

ـ يا للشيطان !

وقالت العمة دوركاس وهى تعيد ترتيب الفراش فى هدوء

ـ يجب أنْ أرجوك ياتوماس ألا تستخدم هذه اللغة

قال توم

ـ حسن ، لن أفعل أيتها الجدة اذا استطعت . ولكن هذا يكفى لجعل المرء يسب ـ انه حر لعين !

وأخذت دوركاس من الفراش لحافا ، وسوت الملايات ثانية وأحكمت طيها حتى بدا توم أشبه مايكون بالبرقة . وقالت وهى تفعل هذا

ـ ليتك ياصديقى تكف عن اللعن والسباب ، وتفكر فى طرق حياتك .

قال توم

ـ ولم أفكر فيها بحق الشيطان ؟ انها آخر شيء في الوجود أريد التفكير فيه ـ تبا لهذا كله !

وانتفض توم على جنبه وراح ينكش ويقلب كل شيء بطريقة رهيبة

وقال فى وجوم بعد أن سكن هنيهة

ـ أظن أن هذا الفتى وفتاته هنا ؟

وقالت دوركاس

ـ انهما كذلك

قال توم

ـ خير لهما أن يهربا الى البحيرة ، وأن يعجلا بالهروب .

وقالت العمة دوركاس وهى تشتغل بابرتها فى هدوء

ـ لعلهما فاعلان .

وقال توم

ــ واسمعي ، ان لنا مراسلين فى ساندسكى يراقبون لنا الزوارق· لا يهمنى أن أفشى السر الآن   انى أرجو أن يفلحـا فى الهروب غيظا فى ماركس ــ هذا الجرو اللعين ! قاتله الله !

وقالت دوركاس

ــ توماس !

قال توم

ــ يا جدتى ، انك لو ضيقت الخناق على انسـان انفجر · ولـكن لنعد الى هذه الفتاة ــ قولى لهم أن يغيروا ملابسها بطريقة تخفيهـا ، فان وصفها قد وصل الى ساندسكى

وقالت دوركاس فى هدوئها الملازم لها

ــ سنلاحظ هذا الأمر

وقبل أن نستأذن من توم لوكر فى هذا الموضع نقول انه بعـد أن لزم بيت الكويكر ثلاثة أسابيع يشكو حمى روماتزمية أصابته مـع نكباته الأخرى ، غادر فراشه رجلا أكثر أسفا وتعقلا ، وبدلا من أن يقتنص العبيد بدأ الحياة فى احدى المستعمرات الجـديدة ، حيث وجدت مواهبه مجالا أرحب فى اقتناص الدببة والذئاب وغـيرها من سكان الغابة ، وهو عمـل أذاع صيته فى الاقليم   وكان توم اذا تحدث عن الكويكر تحدث فى احترام واجلال   كان يقـول « انهم قوم لطاف ، أرادوا أن يهـدونى الى الدين ، ولـكنهم لم يصـلوا الى هدفهم تماما   ولكننى أقول لك شيئا أيهـا الغريب ، انهم يطببون المريض تطبيبا من الطراز الأول ــ ما فى ذلك ريب ·ويصنعون خير المرق والطعام الخفيف »

ورأى القوم ، بعد أن أنبأهم توم بأن البحث سيجرى عن الجماعة فى ساندسكى ، أن من الحكمة تقسيمها فريقين ، فرحلوا جم وأمـه العجوز وحدهما أولا « وبعد ليلة أو اثنتين أوصلوا جـورج واليزا

وابنهما سرا فى عربة الى ساندوسكى ووضعت الأسرة فى بيت كريم تمهيدا لرحلتها الأخيرة فى البحيرة

وكان الليل قد انقضى الآن أكثره ، ولاح لهم فجر الحرية واضحا أمام أعينهم الحرية ! يالها من كلمة مشحونة بالكهرباء ! وما هى أفيها شىء أكثر من مجرد الاسم ـ الاسم الرنان ؟ يارجال أمريكا ويا نساءها ، لم تخفق قلوبكم لذكر هذه الكلمة التى فى سبيلها أريقت دماء آبائكم وكانت أمهاتكم اللاتى فقن الرجال شجاعة على إستعداد لبذل خير أبنائهن فداء لها ؟

أفيها شىء مجيد عزيز فى نظر أمة لا يكون مجيدا عزيزا فى نظر الفرد ؟ وما هى الحرية لشعب الا الحرية لأفراده ؟ ما هى الحرية لهذا الشاب الجالس هناك وقد أطبق ذراعيه على صدره العريض ، واصطبغ خده بسمرة الدم الافريقى ، وسرت ناره السمراء فى عينيه ـ ما الحرية لجورج هاريس ؟ كانت الحرية لآبائكم هى حق الشعب فى أن يكون شعبا ، وهى له حق الانسان فى أن يكون انسانا لا وحشا ، هى حقه فى أن يدعو المرأة التى اصطفاها زوجته وأن يحميها من العدوان ، وهى حقه فى أن يحمى ولده ويربيه ، وهى حقه فى أن يكون له بيته ، ودينه ، وشخصيته ، غير خاضع فى هذا كله لمشيئة أحد كانت هذه الأفكار كلها يجيش بها صدر جورج وقد أسند رأسه على يده متأملا وهو يرقب زوجته ترتدى ملابس الرجال فوق جسدها الجميل النحيل ، لأن القوم رأوا أن هذا التنكر أضمن لسلامة الهروب

وقالت وهى تقف أمام المرآة وتنفض غدائر شعرها المتموج الأسود الغزير ، الشبيه بالحرير فى نعومته

ـ والآن هيا نجزه

ثم أمسكت بقبضة منه معابثة وهى تقول

ـ يكاد المرء يأسف عليه ياجورج ، أليس كذلك ، أليس من الخسارة أن نضطر الى قصه كله ؟

وابتسم جورج فى حزن ولم يجب

وتحولت اليزا الى المرآة ، وأخذ المقص يلمع فى يدها وهى تطيح بغدائرها الطويلة الواحدة تلو الأخرى .

وقالت وقد تناولت فرشاة شعر

ـ انتهينا الآن ، هذا يكفى . والآن بقيت بعض لمسات للتجميل .

ثم قالت وقد تحولت لزوجها وهى تضحك وتحمر خجلا فى الوقت نفسه

ـ والآن ، ألا أبدو فتى جميلا ؟

قال جورج

ـ انك ستكونين دائما جميلة مهما فعلت

وسألته اليزا وهى تجثو على احدى ركبتيها وتضع يدها فوق يده:

ـ وما الذى يجعلك واجما هكذا ؟ يقولون انه ليس بيننا وبين كندا سوى أربع وعشرين ساعة لن نقضى الا نهارا وليلة على البحيرة ، ثم ـ أوه ، ثم !

وقال جورج وهو يجذبها اليه

ـ هو ذلك يا اليزا ! ان مصيرى يتجمع الآن كله فى نقطة فلأن يقترب المرء من أرض الخلاص الى هذا الحد ، حتى ليكاد يشهدها بعينى رأسه ، ثم يخسر كل شىء . أخشى ألا أعيش قط تحت سمائها يا اليزا .

فقالت زوجته مستبشرة :

ـ لا تخف . ما كان الهنا العادل ليأتى بنا هذا الشوط كله لو لم يكن قصده أن يبلغ بنا النهاية سالمين . يخيل الى أننى أشعر بوجوده معنا ياجورج

قال جورج وهو يضمها بقبضة متشنجة

ـ انك امرأة مباركة يا اليزا ! ولكن خبريني بحقك ! أيمكن أن تكون هذه الرحمة الكبرى من نصيبنا ؟ أستنتهى هـــذه الأعوام الطوال من البؤس والشقاء ؟ ـ أسنظفر بحريتنا ؟

قالت اليزا وهى تتطلع الى فوق ودموع الأمل والحماسة تلمع على أهدابها السوداء الطويلة

ـ أنا واثقة من هذا ياجورج ، وفى باطنى احساس بأن الله سيعتقنا من رقنا هذا اليوم

قال جورج وهو يقوم فجأة

ـ سأصدقك يا اليزا ، سأصدقك ـ تعالى بنا نمض

ثم قال وهو يمسك بها على مرمى ذراعه ويتطلع اليها فى اعجاب

ـ حسن ، انك فعلا فتى جميل ، وهذه القصة من الشعر المتموج القصير تناسبك تماما البسى قبعتك . هكذا ـ على جنب قليلا لم أرك من قبل تبدين فى مثل هـــذا الحسن ولـكن الوقت قد حان لحضور العربة لا أدرى هل أعدت مسز ســمايذ هارى فى ثياب تنكره ؟

وفتح الباب فدخلت منه امرأة نصف وقور تقود هارى الصغير وقد ارتدى ثياب فتاة

وقالت اليزا وهى تديره

ـ ياله من فتاة جميلة ! ســندعوه هاريت أليس كذلك ؟ ألا يناسبه الاسم تماما ؟

وكان الغلام يقف فى جد مراقبا أمه فى مظهرها الغريب الجديد ، ملتزما الصمت العميق ، متـأوها بين الحين والحين آهات عميقـة مختلسا اليها النظر من تحت خصل شعره السمراء .

وقالت اليزا وهى تمد يديها اليه

ـ هل يعرف هارى ماما ؟

والتصق الغلام بالمرأة فى حياء ٠

ــ لم تحاولين يا اليزا ملاطفته وأنت تعلمين أنه يجب ابعاده عنك؟

ــ أعلم أن هذا تصرف أحمق ولكنني لا أطيق أن أراه منصرفا عني ٠ ولكن ــ أين معطفى ؟ ها هو ذا ــ كيف يلبس الرجال معاطفهم ياجورج ؟

قال جورج وهو يطرحه على كتفيه ــ

ــ عليك أن تلبسيه هكذا

قالت اليزا وهي تحكى حركته

ــ هكذا اذن ، وعلى أن أضرب الأرض بقدمي وأخطو خطوات طوالا ، وأحاول أن أبدو قليلة الحياء

قال جورج

ــ لا تجهدى نفسك كثيرا فالناس يلتقون بين الحين والحين فتى وديعا متواضعا ، وأحسب أنه أيسر لك أن تمثلى هذه الشخصية

وقالت اليزا

ــ وهذان القفازان ــ ليرحمنا الله ان يدى تغوصان فيهما

قال جورج

ــ نصيحتى لك ألا تخلعيهما قط ٠ فقد يدل مخلبك النحيل الصغير علينا جميعا ــ والآن يامسز سمايذ ، ان خطتنا أن تأتى فى رعايتنا ، وتمثلى دور عمتنا ــ فاذكرى هذا

قالت مسز سمايذ

ــ سمعت أنه كان هناك رجال على الميناء يحذرون جميع ربابنة سفن التبريد من رجل وامرأة يرافقهما غلام صغير

قال جورج

ــ هذا صحيح ! اذن لو رأينا بعضهم لأخبرناهم

فى هذه اللحظة وصلت الى البـــاب مركبة ، واحتشدت الأسرة الصديقة التى آوت اللاجئين حولهم تحييهم تحيات الوداع

لقد تم استخفاء أفراد الجماعة عملا بالملاحظات التى أبداها توم لوكر وقبلت مسز سمايذ أن تنتحل صفة عمـــة الصبى هارى ، وكانت سيدة محترمة من سيدات المســـتعمرة التى يزمعون الهروب اليها فى كندا ، موشكة لحسن الحظ على عبور البحيرة فى ايابهـا الى بلدها ، ولكى يتعلق الغلام بها سمح له في اليومين الأخيرين بالبقاء فى رعايتها دون سواها واستطاعت بفضـــل الاسراف فى تدليله ، واتحافه بقدر هائل من الفطائر والحلوى أن تجعل السيد الصغير يتعلق بها أشد تعلق ٠

وانطلقت العربة الى رصيف الميناء ٠ وسار الفتيان ، كمـــا كانا يبدوان ، فوق العارضة الى المركب ، وقد أسلمت اليزا ذراعهــا فى شهامة لمسز سمايذ ، واهتم جورج بحقائبهم

كان جورج يقف عند مكتب القبطان وهو يشترى تذاكر جماعته حين ترامى الى مسمعه حديث رجلين الى جواره

قال أحدهما

ــ لقد راقبت كل صاعد الى المركب ، وأنا واثق أنهم ليسوا على هذا المركب ٠

وكان الصوت صوت كاتب المركب وكان محدثه صديقنا القديم ماركس الذى قدم الى سانداسكى بما هو معهود فيه من مثابرة عظيمة النفع ، ملتمسا فريسة يلتهمها

وقال ماركس

ــ انك لا تكاد تفرق المرأة عن النساء البيض ٠ أما الرجل فخلاسى فاتح اللون جدا ، وفى احدى يديه كى

واختلجت يد جورج التى كان يتناول بها التذاكر وباقى النقود ، ولكنه تحول فى هدوء ورباطة جأش ، وألقى على وجــه المتكلم نظرة

غير عابئة ، وسار الهوينا ميمما صوب جانب آخر من المركب حيث كانت اليزا واقفة في انتظاره .

وخلت مسز سمايذ هى وهارى الصغير الى قمرة من القمرات المخصصة للسيدات ، حيث كان حسن الصبية الصغيرة المزعومة مثار تعليقات كثيرة سارة من الراكبات

وطاب لجورج والناقوس يقرع قرعة الوداع أن يرى ماركس يسير على العارضة صوب الشاطيء ، وتنفس الصعداء حين قطع المركب بينهما مسافة لا رجعة فيها

كان النهار رائعا ، وأمواج بحيرة أيرى الزرقاء تتراقص وهى تتموج وتلمع فى ضوء الشمس وهب من الشاطيء نسيم عليل وشق المركب الأشم طريقه قدما فى قوة ورشاقة

ليت شعرى أى دنيا مجهولة يطويها قلب انسان واحد بين جوانحه ! ومنذا الذى كان يدور بخلده كل هذا الذى اضطرم به صدر جورج وهو يروح ويغدو هادئا على ظهر المركب والى جواره رفيقه الخجول ؟ ان ذلك الخير العظيم الذى لاح له قاب قوسين أو أدنى قد بدا له أجمل وأروع من أن يكون حقيقة واقعة ، وأحس فى كل لحظة من لحظات النهار بالخوف الشديد من أن يظهر شيء يختطفه من بين يديه

ولكن المركب مضى يمخر عباب البحيرة قدما وجرت الساعات سراعا ، وأخيرا لاحت الشواطيء الانجليزية واضحة كاملا شواطيء لها سحر تعويذة جبارة ـ فبلمسة واحدة تستطيع أن تفسد كل رقية من رقى العبودية أيا كانت اللغة التى نطقت بها ، أو قوة البلد الذى أكدها

ووقف جورج وزوجته وقد اشتبك ذراعاهما والمركب يدنو من بلدة أمهرستبرج الكندية وترددت أنفاس جورج ثقيلة قصيرة ، وغام أمام عينيه ضباب وضغط فى صمت على اليد الصغيرة التى كانت ترتجف على ذراعه . وقرع الناقوس ثم وقف المركب . وراح جورج يقوم على اخراج حقائبه ويجمع جماعته الصغيرة وهو

لا يكاد يرى ما يفعل ورست الجماعة الصغيرة على الشاطىء ووقفوا ساكنين حتى قام المركب ، ثم ركع الزوج وزوجته وولدهما المذهول بين أذرعهما وهما يبكيان ويتعانقان ، ورفعا قلبيهما ابتهالا وشكرا لله !

« ما كان أشبه هذا بالانتفاضة من الموت الى الحياة

من أكفان القبر الى أثواب السماء ،

من حكم الخطيئة ، ومن جهاد الشهوة ،

الى الحرية النقية تحس بها النفس المغفور لها ،

الى حيث تتحطم أغلال الموت والجحيم ،

ويلبس الانسان الفانى ثوب الخلود ،

بعد أن أدارت يد الرحمة المفتاح الذهبى

وقال صوتها تهلل فنفسك الآن حرة

وسرعان ما قادت مسز سمايذ الجماعة الصغيرة الى بيت مضياف يسكنه مرسل تقى وضعه رسل المحبة فى هذا المكان راعيا للمنبوذين والمشردين الذين لا يعدمون ملجأ لهم على هذا الشاطىء على الدوام

منذا الذى يستطيع أن يعبر عن سعادة أول يوم من أيام الحرية ؟ أليست حاسة الحرية أسمى وألطف من جميع الحواس الخمس أن يتحرك الانسان ، ويتكلم ، ويتنفس — أن يخرج ويدخل بغير رقيب وفى غير تعرض للخطر ؟ منذا الذى يستطيع التعبير عن بركات هذه الراحة التى تهبط على وسادة الرجل الحر فى ظل قوانين تكفل له الحقوق التى منحها الله الانسان ؟ لكم بدا لهذه الأم وجه طفلها النائم جميلا عزيزا تجعله ذكرى آلاف المخاطر أعز وأغلى ! ما أعصى النوم حقا على أجفان يتقلب صاحبها فى هذه النعمة

السابغة ! ومع ذلك فلم يكن هذا الزوجان يملكان شروى نقير ــ لم يكن لهما بيت يستطيعان أن يزعما أنه بيتهما ــ فلقد أنفقا كل شيء، الى آخر فلس   لم يكن لهما ما يملكان أكثر مما تملك طيور السماء أو زنابق الحقل ــ ومع ذلك جفاهما النوم من الفرحة الغامرة

« ايه يا من تسلبون الانسان حريته ، بأى كلام ستبررون أنفسكم أمام الله ؟ »

الفصل الثامن والثلاثون

النصر

« شكراً لله الذى يهبنا النصر »

ألم يخالج الكثير منا أحيانا في أثناء عبورنا طريق الحياة المضنى ، أن الموت أسهل كثيرا من الحياة ؟

ان الشهيد ، وهو يواجه أى شيء ، حتى الموت — موت العذاب البدنى والآلام المروعة ، ليجد فى هول مصيره ذاته مشددا كبيرا لعزيمته فثمة انفعال حى ، ونشوة وحماسة ، قد تجتاز بالانسان أى أزمة من أزمات العذاب تتمخض عن المجد والراحة الأبديين

أما أن يظل الانسان على قيد الحياة — أن يفنى شيئا فشيئا ويبلى يوما بعد يوم بفعل عبودية مزعجة ، دنيئة ، مريرة ، حقيرة ، ويتخاذل كل عصب فيه ويبتئس ، وتخمد فيه بالتدريج كل قدرة على الاحساس — استشهاد القلب هذا الطويل المبلى ، والاستنزاف اليومى البطيء للحياة الصميمة ، قطرة قطرة ، وساعة بعد ساعة — ذلك هو المحك الصادق لجوهر الرجل أو المرأة .

فحين وقف توم أمام مضطهده وجها لوجه ، وسمع تهديده ووعيده ، وظن فى قرارة نفسه أن ساعته أتت ، كبر قلبه بين جنبيه جرأة واقداما ، وخيل اليه أن فى استطاعته أن يحتمل التعذيب والنيران ، ويطيق كل شيء ، ما دام يعتقد أنه يشهد الله والسماء يتراءيان له على قيد خطوة واحدة وراء هذا كله . ولكن ما ان انصرف معذبه ، وهدأ انفعاله ، حتى عاوده ألم أطرافه المرضوضة الكليلة ، وعاوده احساسه بما تردى فيه من انحطاط ويأس وخذلان ، وانقضى اليوم ثقيل الوطأة بطيئا .

وقبل أن تبرأ جراحه بكثير أصر لجرى على أن يعود الى العمـــل المنتظم فى الحقل ، ثم توالت عليه أيام ملؤهــا الألم والتعب اللذان استفحلا بفضل ما استطاع أن يبتكره حقد عقل خبيث وضـيع من ألوان الجور والاهانة والذى امتحن فى ظروفنـــا بمحنة الألم برغم جميع المخففات والملطفات التى تصحبه عادة بالنسبة لنا ، يعرف ضيق النفس الذى يرافق هذا الألم • فلم يعد توم يعجب لفظاظة رفاقه التى اعتادوها • لا بل وجد أن طبعه المشرق الهادىء الذي كان سمة حياته قد عدت عليه وكلفته عنتا شديدا غارات يشنها هذا العدو نفسه لقد كان يعلل نفسه بقراءة كتابه فى أوقات فراغه ، ولــكن لم يكن هناك شيء اسمه أوقات الفراغ فى عمله ولم يكن لجرى والموسـم على أشده ليحجم عن دفع عماله جميعهم الى العمـــل دفعا فى الآحاد وسائر أيام الأسبوع على السواء • ولم لا ؟ — لقد أكسبه هذا مزيدا من محصول القطن ، وكسب بهذا رهانه ، واذا كان من شأن هـــذا الارهاق أن يبلى نفرا آخر من عماله فان فى اســتطاعته أن يشترى خيرا منهم وكان توم فى أول أمره يقرأ آية أو آيتين من كتابه عـلى ضوء النار المرتعشة بعد أن يعود من عمله اليومى المضنى ، ولــكنه منذ لقى ما لقى من معاملة قاسية كان يعـــود فى حال من الارهاق تجعل رأسه يدور وعينيه تعشيان اذا حاول القراءة فكان يشتهى أن يرتمى على الأرض مع زملائه وقد برح به التعب

وعجيب أن يضعف السلام والثقة الدينيان اللذان ســـنداه حتى ذلك الوقت أمام تقلبات النفس وأمام الظلمة اليائسة • وكانت أظلم مشكلات هذه الحياة الغامضة لا تفتـــأ ماثلة أمام عينيه — النفوس المطحونة المهدمة ، والشر الظافر ، والله الصامت برغم هذا • وانقضت على توم الأسابيع والشهور وهو يصارع فى داخله ، فى الظـــلام والحزن • وتذكر خطاب أوفيليا الى أصدقائه فى كنتكى ، وصلى من كل قلبه أن يرسل اليه الله الخلاص ثم ظل يترقب يوما بعد يوم والأمل الغامض يراوده فى أن يرى أحدا يرسل لافتدائه فلما لم يأت أحد ، راح يصد فى نفســــه أفكارا مريرة — ان من العبث أن يخدم الله ، وأن الله قد نسيه • وكان أحيانا يرى كاسى ، وأحيـــانا اذا دعى الى البيت يلمح ايملين اليائسة ، ولكنه قلما كان يتصـــل

بإجداهما . والواقع أنه لم يكن له من الوقت ما يسمح له بالاتصال بأى انسان

وذات مساء كان جالسا وقد هـــده اليأس والارهاق الى جــوار جمرات خابية يخبز عليها عشاءه الخشن . ووضع على النار قليلا من الحطب وحاول أن يؤجج النار لتضىء ، ثم أخرج كتابه انبــــلى من جيبه . هناك كانت جميـــع الفقرات التى وضع تحتهـــا خطوطا الفقرات التى طالما انتشت لها نفســـه — كلمات الآباء والأنبيـــاء ، كلمات الشعراء والحكماء ، الذين أوحوا الى الانسان بالشـــجاعة منذ القدم — أصوات من سحابة الشهود العظيمة ، هؤلاء الشهود الذين لا يفتأون يكتنفوننا فى سباق الحياة . أفقدت الكلمة سلطانها ، أم لم يعد فى طاقة العين الخابية والحس المرهق أن يستجيبا للمسة هـذا الوحى القوى ؟ وتنهد تنهدا ثقيلا . ثم رد كتـــابه الى جيبه . واذا ضحكة غليظة توقظه ، فتطلع الى فوق ورأى لجرى يقف حياله

قال

— حسن أيها الغلام العجوز ، ها أنتذا ترى أن دينك لا ينفعك ، أليس كذلك ! كان رأيى أننى سأستل هذا من جلدك يوما ما !

وكان هذا التعنيف القاسى أمر من الجـــوع والبرد والعـــرى وصمت توم

وقال لجرى

— لقد كنت أحمق ، لأننى قصدت خدمتك حين اشتريتك . كان فى وسعك أن تكون أيسر حالا من ســــامبو أو حتى من كمبو ، وأن تنعم بأوقات رخية ، وبدلا من أن ينزل بك الضرب والجلد كل يوم أو يومين ، كان فى امكانك أن تترأس غيرك من العبيـــد وتضربهم ، ولا يخلو الأمر من جرعات طيبة من بنش الوسكى تصيبها من حين الى حين . ألا ترى يا توم أن من الخير لك أن تكون معقولا ! — ألـــق بهذه الطائفة من الهراء العتيق فى النار وانضم الى كنيستى !

قال توم فى حرارة

ــ معاذ الله

ــ ان الله لن يساعدك · والا لما دفعك الى يدى ! ان دينك هـــذا ياتوم ليس الا مجمـــوعة من الاكاذيب/البالية وأنا عليم به كله وخير لك أن تتمسك بى أنا ، فأنا شخص تحسه وتراه ، وأستطيع أن أصنع لك شيئا !

قال توم

ــ لا ياسيدى سأثبت حيث أنا · وقد يعيننى الله أو لا يعيننى، ولكننى سأستمسك به ، وسيظل ايمانى به راسخا الى النهاية !

قال لجرى وهو يبصق عليه بازدراء ويركله بقدمه

ــ كلما فعلت هذا كنت أشد حماقة ! ولكن لا بأس ، فلن أكف عن ملاحقتك حتى أذل نفسك ــ وسترى !

ثم انصرف عنه

اذا جثم على النفس حمل ثقيل دفعها الى أسفل درك تطيقه ، قام كل عصب فى الجسم والضمير بجهد عاجل يائس لطرح هذا الحمل، وهكذا ترى أن أشد الآلام تبريحا بالنفس كثيرا ما يعقبه مد يعيـــد اليها الفرح والشجاعة وكذلك كان شأن توم الآن فان قوارص العبارات الكافرة التى رماه بها سيده هبطت بنفســـه القانطة الى أسفل درك ، ومع أن يده المؤمنة لم تزل ممسكة بالصخرة الأبدية ، فان القبضة كانت خدرة يائسة · وجلس توم الى النار كمن دوخته لطمة وفجأة بدأ كل شىء حوله كأنه يتلاشى ، وتراءى أمامه انسان مكلل بالشوك مضروب يسيل دمه · وتفرس توم بخشـــوع وعجب فيما ارتسم على الوجه من أناة جليلة ، وسرت الى أعماق قلبه رعـــدة من العينين العطوفتين العميقتين واستيقظت نفسه وهو يمد يديه ويجثو على ركبتيه وقد فاضت عاطفته متدفقة ــ واذا الرؤيا تتغـير شيئا فشيئا ، فأصبحت الأشواك الحادة أشعة مجد ، ورأى الوجه نفسه وقد جلله بهاء لا يدرك ينحنى عليه فى حدب ، وقال صوت « من يغلب فسأعطيه أن يجلس معى فى عرشى كما غلبت أنا أيضا » ·

ولم يدر توم كم من الوقت جلس هناك فلما أفاق لنفسه وجد النار قد خمدت وملابسه قد بللها البرد والندى المتساقط ، ولكن الأزمة النفسية الرهيبة كانت قد مرت ، ولم يعد فى فرحته التى غمرته يحس الجوع أو البرد أو الهوان أو الخيبة أو البؤس فى تلك اللحظة طلق من أعماق نفسه كل أمل فى هذه الحياة وقدم ارادته ذبيحة طائعة للمطلق غير المحدود ونظر توم الى النجوم الخالدة الصامتة ــ أمثلة من جيوش الملائكة التى لا تفتأ تتطلع من فوق الى الانسان ، ورددت وحشة الليل ترنيمة ظافرة طالما ترنم بها فى أوقات أسعد ولكنه لم يشعر قط بمثل شعوره الآن

« ستنحل الأرض كما تنصهر الثلوج ،

وستكف الشمس عن اشراقها ،

ولكن الله الذى دعانى هنا ،

سيظل لى أبد الدهر

« وعندما تنتهى هذه الحياة الفانية ،

ويطوى الجسد ويبطل الحس ،

سيكون لى داخل هذا القناع

حياة كلها فرح وسلام

« وحين تمر بنا هناك آلاف السنين ،

ونحن مضيئون فى بهاء الشمس

سيكون أمامنا أيام نسبح فيها بحمد الله

أكثر من الأيام التى مرت بنا من قبل

والمطلعون على التواريخ الدينية للسكان من العبيد يعلمون أن صلات كهذه التى قصصنا شائعة جدا بينهم • وقد سمعنا بعضها من شفاههم هم فكانت ذات طابع بالغ التأثير والوقع ويذكر لنا علماء النفس حالة تصبح فيها مشاعر النفس وأخيلة العقل قوية

متسلطة حتى لتسخر الحواس الظاهرة وتحملها على تجسيم الخيال الباطن ومنذا يستطيع أن يقيس ما تفعله روح الله القهارة بهـذه القدرات التى أودعها أجسادنا الفانية ، أو الوسائل التى يشدد بها تعالى النفوس المهجورة الخائرة ؟ فأذا آمن العبد المسكين المنبوذ أن المسيح قد ظهر له وكلمه ، فمن يكذبه ؟ ألم يقل المسيح ان رسالته الخالدة على الدهر هى أن يعصب منكسرى القلب وينادى للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالاطلاق ؟

فلما أيقظت أشعة الفجر جماعة النائمين ليخرجوا الى الحقل ،كان بين هؤلاء المنكودين المهلهلين المرتعدين واحد يمشى بخطـوة ظافرة ، ذلك أن ايمانه انقوى بالله القـــدير وبمحبته الأزلية كانا أرسخ من الأرض التى يدب عليها ايه يا لجرى ، جرب معه الآن كل ماتملك من قوى ! فالتعـــذيب المبرح ، والهم الثقيل ، والهـوان والفقر ، وخسارة كل شيء ــ كل هذا انما سيعجل بساعة الخلاص والمجد !

ومنذ ذلك الوقت أحاط نطاق منيع من الســـلام بقلب المضطهد المتواضع ــ فلقد قدسه مخلص ماثل فيه ليكون هيكلا له ٠ وانتهت الآن الحسرات الأرضية التى أدمت هذا القلب من قبـــل ، وانتهى ما كان يعذبه من تقلبات الأمل والخوف والرغبة ٠ ذلك أن الارادة البشرية التى طال عليها الانحناء ونزف الدم والنضـال قد اندمجت الآن اندماجا تاما فى الارادة الالهيـــة وبدت له الآن رحلة العمر الباقية قصيرة ، والنعيم الخالد قريب المنال شديد الوضـوح حتى لقد تساقطت عنه أشد هموم هذه الحياة دون أن تؤذى نفسه ٠

ولحظ الجميع التغير الطارئ على مظهره ٠ ولاح أن البشر والخفة قد عادا اليه ، وأن هدوءا لا تزعزعه الاهانات ولا الأذى قد غمره

وقال لجرى لسامبو

ــ بحق الشيطان ما هذا الذى طرأ على توم ؟٠لقد كان منذ لحظـة مبتئسا متخاذلا ، وها هو ذا الآن يطفر فرحا !٠

ــ لست أدرى ياسيدى ، لعله اعتزم الهروب

وقال لجرى وهو يكشر تكشيرة ضارية

ـ وددت لو رأيته يحاول هذا   آلا تريد أن نراه يفعل ياسامبو ؟

قال العفريت الأسود وهو يضحك متملقا

ـ أظننا نريد ذلك ! ها ! ها ! ها ! كم سيكون هـذا مسليا ! أن نراه لاصقا بالوحل ، والكلاب من خلفه تطارده وتشق الحراج لتصل اليه ! رباه ، لقـد كادت ضلوعى تنفجر من الضحك يوم أمسكنا بالمرأة مولى ، وظننت الكـلاب تريد أن تسلخها سلخا قبـل أن أبعدها عنها   وهى تحمل على جسدها علامات هذا المزاح الى اليوم .

قال لجرى

ـ وأحسبها ستحملها الى القبر   ولكن عليك يا سامبو الآن أن تفتح عينيك . فاذا حاول الزنجى ميئا من هذا فعرقله .

قال سامبو

ـ أترك هذا الأمر لى يا سيدى . سأقتنص الحيوان . ها، ها، ها!

دار هذا الحديث ولجرى يهم بركوب جواده ليمضى الى المدينـة المجاورة   وخطر له فى عودته تلك الليلة أن يعرج بجواده فى جولة حول مساكن الفعلة ليرى هل كل شىء على مايرام

كانت الليلة قمراء زاهية ، وظلال الأشجار الصينية الرشـيقة تنعكس انعكاسا دقيقا على الأعشاب التى تحتها   وفى الهواء ذلك الصمت الشفاف الذى يكاد تكديره أن يكون حراما   وكان لجرى على كثب من المساكن حين سمع صـوتا يترنم   ولم يكن الترنيم شيئا مألوفا هناك ، فوقف لينصت   وسمع صوتا موسـيقيا من مقام « التنر » يترنم

« حين أقرأ أن لى حقا ثابتا

فى سكنى السماء ،

سأودع كل خوف

وأمسح عيني الباكيتين

« ولو أن الأرض قامت تحاربني

وفوقت الى سهام الجحيم .

لاستطعت أن أهزأ بغضب الشيطان

وأن أواجه عالما عابسا متجهما

« فمرحبا بالهموم تطمو كسيل عزم ،

ومرحبا بعواصف الحزن تنقض على

فلن أبالى ما دمت أبلغ فى سلام وطنى ،

والهى ، وسمائى ، وكلى

قال لجرى لنفسه

ــ هو هو ! اذن فهو يظن هذا ؟ ما أشد بغضى لهــذه الترانيم المثدية !

ثم قال وقد فاجأ توم ورفع عليه سوطه

ــ أيها الزنجى كيف تجرؤ على احداث هذا الضجيج حين يجب أن تكون نائما ! أطبق فمك هذا الأسود العجوز وادخل كوخك !

وأجاب توم فى بشر حاضر وهو يهم بالدخول

ــ أجل ياسيدى

واشتد غيظ لجرى لما رآه واضحا من سعادة توم ، فساق جواده اليه وأهوى بسوطه على رأسه وكتفيه وهو يقول

ــ خذ أيها الكلب ، وانظر هل تشعر بمثل هذه الراحة الآن ؟

ولكن الضربات لم تكن تهوى الآن الا على الانسان الظاهر ، لا على القلب كما كانت تقع من قبل ووقف توم خاضعا مطيعا ، ومع ذلك لم يستطع لجرى أن يخفى عن نفســه أن سلطانه على عبده

الأسير قد ولى على نحو ما وبينما كان توم يتوارى داخل خصه ولجرى يدير جواده فجأة أومضت فى عقله ومضة من هذه الومضات الحية التى كثيرا ما ترسل برق الضمير على النفس الشريرة المظلمة وأدرك لجرى تمام الادراك أن الله هو الذى كان يقف بينه وبين ضحيته فأخذ يسب ويجدف ان هذا الرجل الصامت المطيع ، الرجل الذى لم يزعزعه التهكم والسخرية ولا التهديد والوعيد ، ولا جلد السياط ، ولا ضروب القسوة ، قد أيقظ فى باطنه صوتا شبيها بالصوت الذى أيقظه المسيح فى نفس الانسان الذى كان يسكنه الجن فقال

ــ ما لنا ولك يايسوع الناصرى ؟ أجئت لتعذبنا قبل الأوان

كانت نفس توم تفيض عطفا واشفاقا على الأشقياء المساكين الذين يحيطون به ولاح له كأن أحزان حياته هو قد انتهت ،وكأنه يتوق الى أن يفيض عليهم بعض هذا الكنز العجيب من السلام والفرح الذى وهب من فوق ، ليخفف عنهم ويلاتهم صحيح أن فرصته كانت ضئيلة ، ولكنه لم يعدم فى ذهابه الى الحقل وايابه منه ، وفى ساعات العمل ، فرصا تتيح له مد يد المعونة الى المتعبين والمبتئسين والخائبين ولم يستطع هؤلاء المستوحشون المطحونون المساكين أول الأمر أن يدركوا ما كان يفعل ولكن حين امتد هذا الأسابيع والشهور بدأ يحرك فى قلوبهم المخدرة أوتارا طال صمتها وبدأ هذا الرجل الصبور الصامت الغريب المستعد لحمل الأحمال عن الجميع دون أن يلتمس معونة من أحد منهم ــ الرجل الذى كان يتنحى ليقدم الكل عليه ، وكان يرضى بآخر مكان فى الصف ،ويأخذ أقل مما يأخذ الجميع ، والذى كان مع هذا سباقا الى اشراك أى محتاج منهم فى القليل الذى عنده ــ الرجل الذى كان ينزل فى الليالى الباردة عن غطائه المهلهل راضيا ليزيد من راحة امرأة ترتعد مرضا، ويملأ سلال الفعلة الضعاف فى الحقل معرضا بذلك نفسه لخطر رهيب هو خطر تقديم سلته هى ناقصة ــ الرجل الذى لم يشارك قط زملاءه فى التفوه بكلمة سب أو لعن بالرغم من المطاردة القاسية العنيفة التى كان يتقفاه بها طاغوتهم المشترك ــ نقول ان هذا الرجل

بدأ شيئا فشيئا ، وبصورة غير محسوسة ، بدأ آخر الأمر يبسط عليهم سلطانا عجيبا فلما خفت زحمة العمـــل ، وسمح لهم من جديد باستخدام آحادهم كان الكثيرون منهم يجتمعون ليسمعوا منه حديثه عن المسيح . وكانوا يشتهون أن يجتمعوا معا فى مكان واحد للاستماع والصلاة والترتيل ، ولــكن لجرى أبى أن يسمح بهذا ، وأحبط غير مرة محاولات كهذه وهو يسب كالوحش لذلك اكتفوا بأن يبلغ الواحد منهم صاحبه بأنباء البشرى ، ولــكن منذا يستطيع أن يصف ذلك الفرح البرىء الذي سمع به بعض هـؤلاء المنبوذين المساكين الذين كانت الحياة فى نظرهم رحلة مقفرة الى مجهول مظلم ، عن فاد رحيم بهم ووطن سماوى ؟ ان من الحقـائق التى يقررها المرسلون أن جنسا من أجناس الأرض لم يتلقالانجيل بمثل الاستماع الطيع المتشوق الذى تلقـــاه به الجنس الافريقى فمبدأ الاتكال والايمان المسلم ، الذى هو أساس هذا الانجيل ، عنصر أشد تأصلا فى طبع هذا الجنس منه فى أى جنس آخر ولقد طالما لوحظ بينهم أن حبة شاردة من الحق حملتها ريح المصادفة الىقلوب مغرقة فى الجهل قد آتت من الثمر الموفور ما يزرى بثمار ثقـــافة أرفع وأبرع .

ان المرأة المولدة المسكينة ، التى كاد ايمانهـــا البسيط ينسحق تحت وطأة القسوة والبغي الفادحين ، شعرت بروحها ترتفع بفضل هذه الترانيم والفقرات من الانجيل التى كان هذا البشير المســـكين يهمس بها فى أذنها بين الفينة والفينة وهما ماضيان الى الحقــل أو قافلان منه وأكثر من ذلك أن تأثيراته البسيطة المتواضعةقد هدأت من عقل كاسى الشارد الذى كان على شفا الجنون

ذلك أن كاسى ، وقد اكتوت بالآلام الطاحنة التى عانتها فىالحياة حتى لقد جن جنونها وبرح بها اليأس ، كثيرا ما وطنت نفسها عـلى الانتقام من لجرى يوما من الأيام ، يوما تثأر فيه يدها من ظالمهـــا لكل ما شهدته من بغيه وقسوته ، أو لكل ما عانته هى نفسها منه .

وذات ليلة بعد أن هجع كل من فى كوخ توم فوجىء برؤية وجهها

يطل عليه من النافذة بين كتل الخشب وأومأت اليه في صمت أن يخرج .

وخرج توم الى الباب وكانت الساعة بين الأولى والثانية ليلا ـ والليلة قمراء مشرقة هادئة ساكنة . ولحظ توم وضوء القمر يسطع على عيني كاسى السوداوين النجلاوين أن فيهما بريقا غريبا وحشيا يختلف عما ألف فيهما من نظرة اليأس الثابتة

وقالت وهى تضع يدها الصغيرة على معصمه وتسحبه الى الأمام بقوة كأن يدها من فولاذ

ـ تعال هنا أيها الأب توم تعل هنا ـ عندى لك أنباء .

وقال توم متشوقا

ـ وما هي يا مس كاسى ؟

ـ توم ، ألا تحب أن تنال حريتك ؟

قال توم

ـ سأنالها ياسيدتي حين يشاء الله

قالت كاسى وقد لمعت عيناها ببريق النشاط المفاجىء

ـ أجل ، ولكنك قد تنالها الليلة . تعال .

وتردد توم

فقالت هامسة وهى تحدق فيه بعينيها السوداوين

ـ تعال معى ! تعال ! انه نائم ـ مستغرق فى نومه . لقدوضعت فى خمره مايكفى لابقائه فى هذا السبات . وليتنى كنت أملك المزيد ـ اذن لما كان لى بك حاجـة ولكن تعال ، فالبـاب الخلفى قفله مفتوح ، وهناك بلطة ، لقد وضعتها هناك ـ ان باب حجرته مفتوح، وسأريك الطريق لولا ضعف ذراعى لفعلت الفعلة بنفسى هيـا اذن ..

قال توم فى حزم وقد وقف وأمسك بهـــا ليحجزها وهى تمضى قدما

ـ لن أفعل ياسيدتى ولو أعطيت الأرض وما فيها !

قالت كاسى

ـ ولكن فكر فى هذه المخلوقات المسكينة كلها قد نحررهم جميعا ونمضى الى أى مكان فى المستنقعات ونعثر على جزيرة نعيش فيهـــا وحدنا لقد سمعت أن بعضهم فعل مثل هذا ان أى حياة خير من حياتنا هذه

قال توم فى حزم

ـ لا ، لا ! ان الخير لا يأتى أبدا من الشر وانى لأفضل على هذا أن أقطع يمينى !

قالت كاسى وهى تتحول عنه

ـ أذن سأفعلها بنفسى

قال توم وهو يرتمى أمامها

ـ أواه يامس كاسى ! أستحلفك بالله ألا تبيعى روحك الغـــالية للشيطان على هذه الصورة ! لن تجنى من هـــذا الا الشر فالله لم يدعنا للغضب • وعلينا أن نحتمل ، وننتظر الوقت الذى عينه

قالت كاسى

ـ ننتظر ! أولم أنتظر ؟ انتظرت حتى دار رأسى وتلفت نفسى ! وأى آلام حملنيها ؟ وأى آلام حملها المئات من المخلوقات المسكينة ؟ ألا يعتصر الآن منك دم الحياة ؟ ان صوتا يدعونى ! انهم ينادوننى لقد حان حينه ، وسأنتزع منه دم قلبه

قال توم وهو يمسك بيديها الصغيرتين اللتين ضمتهما فى عصبية شديدة

ـ لا ، لا ، ! لا أيتها الروح الضالة المسكينة ، يجب ألا تفعلى هذه الفعلة ان المسيح الحبيب لم يسفك دما ، ولقد تألم من أجلنا نحن حين كنا أعداء له . رباه ، أعنا لكى نتأثر خطاه ونحب أعداءنا .

قالت كاسى وقد لمعت عيناها فى ضراوة

نحب ! نحب أعداء كهذا العدو ! ليس هذا فى طاقة اللحم والدم .

قال توم وهو يتطلع الى السماء

ـ نعم ياسيدتى ولكن الله يهبنا اياه وهذه هى الغلبة فاذا استطعنا أن نحب الجميع ونصلى لأجلهم وأن نفعل هذا فى جميع الظروف ، انتهت المعركة وجاء النصر ـ تبارك الله !

ونظر الأسود الى السماء والعبرات تنحدر من عينيه وتخنق صوته

وهذا يا افريقيا ! يا آخر المدعوين بين الشعوب ـ المدعوة لاكليل الشوك ، للسوط للعرق والدم ، للعذاب والألم ـ هذا هو انتصارك ، وبهذا ستملكين على الأرض

ووقعت مشاعر توم الحارة العميقة ، ورقة صوته ، ودموعه التى ذرفها كما يقع الندى على روح المرأة المسكينة الجامحة القلقة فاجتمعت على نيران عينيها المكفهرة رقة ولين ، ثم أطرقت ، واستطاع توم أن يمس عضلات يديها المتراخيتين وهى تقول

ـ ألم أقل لك ان الأرواح الشريرة تتبعنى ! أواه ! أيها الأب توم ، اننى لا أستطيع الصلاة ـ ليتنى أستطيع اننى لم أصل قط منذ بيع ولداى ! لابد أن ما تقوله حق ، وأنا أعلم أنه كذلك . ولكنى حين أحاول الصلاة ، لا أستطيع الا أن أبغض وألعن لا أستطيع الصلاة !

قال توم فى عطف بالغ

ـ أيتها الروح المسكينة ! ان الشيطان يريد أن يضع عليك يده ويغربلك كما تغربل الحنطة انى أصلى لأجلك يا مس كاسى

اتجهى الى المسيح فلقد جاء ليعصب منكسرى القلب ويعزى المحزونين جميعا

ووقفت كاسى صامتة بينما أخذت دموع غزيرة كبيرة تنحدر من عينيها المطرقتين •

وقال توم فى شيء من التردد بعد أن أحاطها لحظة ببصره فى صمت

ـ يا مس كاسى ، لو استطعت أن تهربى من هنا ـ لو كان هذا ممكنا ـ لوددت أن أراك وايملين تفلحان فى الهروب أى تذهبان دون سفك دم ـ لا العكس

ـ هل لك أن تحاول هذه المحاولة معنا أيها الأب توم ؟

قال توم

ـ لا ، لقد مضى الوقت الذى كنت أشتهى فيه الهروب ولكن الله عين لى عملا بين هؤلاء البائسين ، وسأمكث معهم وأحتمل آلامى الى النهاية أما أنتما فالحال معكما مختلفة فهذا المكان فخ لكما ـ وهو أكثر مما تقويان على احتماله ـ وخير لكما أن تهربا اذا استطعتما •
قالت كاسى

ـ لست أعرف مهربا الا عن طريق القبر ليس فى الدنيا حيوان أو طير الا ويستطاع أن يجد له مأوى فى مكان ما وحتى الأفاعى والتماسيح لها بيوتها التى تسكن اليها ، أما نحن فلا مكان لنا ففى أحلك المناقع ستطاردنا كلابهم وتقتنصنا • كل انسان وكل شيء ضدنا وحتى الحيوان ينضم اليهم ضدنا ـ فالى أين نمضى ؟

ووقف توم صامتا ، وأخيرا قال

ـ الذى أنقذ دانيال فى جب الأسود ـ الذى أنقذ الفتيان فى أتون النار ـ الذى مشى على البحر وأمر الريح أن تصمت ـ انه حى

بعد ، وأنا أومن أنه يستطيع انقاذكما فجربى ، وسوف أصلى لأجلك بكل ما أملك من قوة .

ليت شعرى بأى قانون عجيب من قوانين العقل تتقد فجأة شرارة فكرة طالما أغفلت وديست تحت الأقدام كأنها حجر عديم النفع ، ولكنها الآن تنبعث فى ضوء جديد كأنها ماسة قد كشفت لتوها ؟

لقد سبق لكاسى غير مرة أن أدارت فى عقلها الساعات الطوال كل مشروعات الهروب الممكنة أو المحتملة ثم نبذتها جميعا على أنها عديمة الجدوى مستحيلة التحقيق عمليا ولكنها فى هذه اللحظة أومضت فى عقلها كالبرق الخاطف خطة بلغ من بساطتها وسهولة تحقيقها فى جميع تفاصيلها أنها أيقظت فى نفسها الأمل من فوره .

وقالت فجأة

ـ أيها الأب توم سأحاول !

وقال توم

ـ آمين ! يساعدك الله !

الفصل التاسع والثلاثون

الخطـــة

« أما طريق الأشرار فكالظلام لا يعلمون ما يعثرون به »

كانت غرفة السطح فى البيت الذى يسكنه لجرى ، كأكثر غرف السطح ، مكانا واسعا مهجوراً ، علاه التراب ونسيج العنـــاكب وانتشرت فيه المهملات وكانت الأسرة الغنية التى سكنت البيت فى عصره الذهبى قد استوردت كثيرا من الأثاث الفـــاخر ، حملت بعضه معها وخلفت البعض الآخر مهجورا وحـده فى حجرات خاوية عطنة أو مخزونا فى هذه الحجرة على الســـطح وقام على جوانب الحجرة صندوق أو صندوقان كبيران من صناديق العفش التى جلب فيها الأثاث من قبل وكان فى الحجرة نافذة صـغيرة ينفذ من بين زجاجها المترب المعتم ضوء قلق ضئيل ينير المقاعد المرتفعة العـــالية الظهور والمناضد المتربة التى شهدت أياما أزهى من هـــذه كانت الحجرة من جميع الوجوه مكانا غريبا رهيبا موحشا ولكنها فوق وحشتها لم تعوزها الأســـاطير تجرى على ألســـنة الزنوج المؤمنين بالخرافة فتزيدها رهبة على رهبة وحدث قبل ســـنوات أن امرأة زنجية سخط عليها لجرى فحبسها فيها أسابيع ولا نقول هنـــا ما جرى لها فيها ، ولكن الزنوج اعتادوا أن يهمسوا به بعضهم لبعض همسا غامضا ، على أنه علم أن جثة المرأة البائســـة أنزلت يوما من الحجرة ودفنت وقيل بعد هذا ان أصوات السب واللعن واللطم العنيف كانت ترن فى الحجرة العتيقـــة مختلطة بالعـــويل وأنين اليأس وقد ثار غضب لجرى مرة حين اتفق له أن سمع شيئاً من هذه القصص ، فأقسم ليتيحن الفرصة لمن يسمعه بعد هـــذا يروى

القصص عن الحجرة أن يختبر ما بداخلها لأنه سيقيده فيها أسبوعا٠ وكان فى هذه الاشارة مايكفى لكف مثل هـذا الحديث وان لم ينل من سمعة القصة اطلاقا بطبيعة الحال

وتجنب كل من فى البيت شيئا فشيئا السـلم المؤدى الى حجرة السطح ، بل الدهليز المؤدى الى السلم ، لأن الـكل كانوا يخشون الحديث عنها وبطل تناقل الأسطورة تدريجا ثم خطر لـكاسى فجأة أن تستغل حساسية لجرى الشـديدة للخرافات فى تحريرها وتحرير رفيقتها فى الألم

وكانت حجرة نوم كاسى تقع أسفل حجرة السطح مباشرة ٠وذات يوم شرعت فجأة ، وهى تعلن عن حركاتهـا اعلانا ملحوظا ودون استشارة لجرى فى نقل جميع أثاث غرفتها وملحقاتهـا الى غرفة أبعد منها كثيرا وبينما كان لجرى عائدا من جولة على جواده وجد الخدم الذين أمرتهم كاسى بنقل الأثاث يجرون ويلغطون فى كثـير من الحماسة والفوضى

وصاح لجرى

ـ ما هذا ؟ ماذا فى الجو يا كاسى !

قالت كاسى فى شراسة

ـ لا شىء انما أردت الانتقال الى حجرة أخرى ٠

وقال لجرى

ـ ولماذا من فضلك ؟

قالت كاسى

ـ أنا أريده

ـ بئست الارادة ! ولماذا ؟

ـ أحب أن أظفر ببعض النوم بين الحين والحين

ـ النوم ! حسن وما الذى يقلق منامك ؟

قالت كاسى فى جفاء

ـ أظننى أستطيع الجواب اذا شئت الاستماع

قال لجرى

ـ أفصحى اذن أيتها الخبيثة !

ـ لا شيء ، وأظنه لن يقلقك أنت ! ليس الا أنينا وصـــوت ناس يصطرعون ويتدحرجون فوق أرض حجرة السطح فى جوف الليل ، من الثانية عشرة الى الصباح !

وقال لجرى فى قلق وان حاول ضحكة مغتصبة

ـ ناس فى حجرة السطح ! من هم يا كاسى ؟

ورفعت كاسى عينيها السوداوين الحادتين ونظرت فى وجه لجرى نظرة حملتها من التعبير ما اخترق عظامه وهى تقول

ـ حقا ياسيمون ، من هم ؟ وددت لو أخبـــرتني أنت من هم أظنك لا تعرف !

وأهوى عليها لجرى بسوطه وهو يسب ، ولكنها مالت الى الجنب وانخرطت من الباب ثم تلفتت خلفها قائلة

ـ لعلك تعلم كل شيء عن هذا الأمر اذا نمت فى تلك الحجرة ربما كان من الخير أن تجرب !

قالت هذا ثم أغلقت الباب لتوها وأدارت فيه المفتاح

وأرغى لجرى وأزبد ، وهدد بتحطيم الباب . ولكن يبدو أنه أعمل الروية فى الأمر ثم مشى متململا الى حجـــرة الجلوس وأدركت كاسى أن السهم الذى فوقته قد أصاب منه مقتلا ، ومنذ تلك الساعة لم تكف بأبرع ضروب الحــــديث عن تقفيه بسلسلة التأثيرات التى بدأتها

وكانت قد أدخلت فى ثقب بحجرة السطح عنق زجاجـــة عتيقة

بطريقة جعلت أشد الأصوات حزنا واكتئابا تنبعث من هذا العنق إذا هبت أهون ريح ، فإذا كانت الريح شديدة علت الأصوات فغدت كأنها الصرخة وبدت للآذان السريعة التصـديق المؤمنة بالخرافة كأنها صرخة الرعب واليأس

وكانت هذه الأصوات تطرق آذان الخـدم من حين لحين فتبعث فيهم من جديد ذكرى أسطورة الشبح القديمة فى كل عنفوانها ، وبدا أن رعبا شديدا خرافيا يملأ البيت ومع أن أحدا لم يجرؤ على أن ينبس به للجرى ، فقد وجد هذا نفسه محاطا به كأنه الهـواء الذى يتنفسه

وليس كـكافر انسان تتغلغل الخرافة فى نفسه وتملك عليـه ذاته ان المؤمن يطمئنه اعتقاد فى اله حكيم واسع القـدرة يملأ وجوده الفضاء المجهول ضياء ونظاما أما الرجـل الذى كفر بربه فان عالم الأرواح والأشباح عنده هو فى الحق كما يقول الشـاعر العبرى « أرض الظلمة وظلال الموت » ، أرض بلا نظـام ، يستوى فيها النور والظلام فالحيـاة والموت فى عينـه أرض مسكـونة تملؤها أشتات من الجن لها رهبة طيفية غامضة

وكان صراع لجرى مع توم المرة بعد المرة قد أيقظ فيـه العنصر الأخلاقى النائم — أيقظه ليلقى المقـاومة من قوة الشر العنيـدة ولكنه برغم هذا كان يستشعر رعدة واضطرابا فى باطنـه المظلم تبعثهما كل كلمة أو صلاة أو ترنيمة فيستجيب لهما برعب خرافى

كان سلطان كاسى عليه غريبا فريدا فى بابه فلقد كان مالكهـا وظالمها ومعذبها وكانت ملكا له لا ينازعه فيه أحد كما يعلم ، ولم يكن لها أمل على الاطلاق فى معونة أو انصاف • ولكن فى طبيعـة البشر أن أشدهم ضراوة لا يقوى على الحياة فى اتصال دائم بنفـوذ نسائى قوى دون أن يسيطر عليه هـذا النفوذ لقد كانت حين اشتراها فى بداية أمره معها امرأة رقيقة التنشئة على حد قولها ، ثم سحقها فى غير وازع من ضمير تحت وطأة وحشيته • ولكنها بعـد أن تبلدت الأنوثة فى باطنها بفعل الزمن والمؤثرات المفسدة واليأس

أصبحت سيدة له الى حد ما ، فكان تارة يستبد بهـــا وتارة يخشى بأسها

وأصبح تأثيرها هذا أوكد وأشد ازعاجا مذ أضفى جنونها الجزئى على ألفاظها ولغتها كلها صبغة غريبة غامضة لا تستقر على حال

كان لجرى بعد ليلة أو ليلتين من هذا الوقت جالســا فى حجرة الجلوس العتيقة الى جوار نار من الخشب ترتعش فترمى بومضـات متقطعة حول الحجرة وكانت الليلة من الليالى العاصفة التى تبعث آلاف الأصوات الغريبــة فى البيوت العتيقة المتداعيــة • فالنوافذ تخشخش ، والمصاريع تخبط ، والريح تصـفر وتزمجر وتنقلب فى المدخنة ، وتنفخ بين الحين والحين دخانا ورمادا كأن وراءهـا جيش من الأشباح • وكان لجرى يحسب حساباته ويقرأ الصحف منـذ ساعات ، بينما جلست كاسى فى ركن الحجرة تنظر الى النار واجمة • ووضع لجرى جريدته ، واذ رأى كتابا قديما على المنضـدة لحظ أن كاسى كانت تقرأ فيـه أول السهرة التقطـه وشرع يقلبـه وكان الكتاب مجموعة من قصص القتـــل وأساطير الأشباح والـكوارث الخارقة التى تستهوى من يبدأ فى قراءتها ، لأنها جمعت بهـــذه الطريقة الفجة وزينت بالرسوم

وأخذ لجرى يتهكم ويسخر مما يقرأ ، ولكنه مضى برغم هـذا فى القراءة صفحة بعد صفحة ، حتى اذا قطع فى الكتاب شوطا ألقى به أخيرا وهو يسب ويلعن

وقال وهو يتناول ملقط الجمر ويصلح النار

ـ أظنك لا تؤمنين بالأرواح يا كاسى ، أليس كذلك ؟ حسبت أن لك من الذكاء ما يعصمك من السماح للأصوات بأن تروعك •

قالت كاسى فى وجوم

ـ لا عليك مما أومن به •

قال لجرى

ـ كان بعض الفتيان يحـــاولون تخويفي بقصصهم فى البحر ولكن لا سبيل الى التغلب على بهذه الطريقة أؤكد لك أننى أصلب من أن يؤثر فى هذا الهراء

وجلست كاسى تنظر اليـه نظرات حادة فى ظل ركن الحجرة وكان فى عينيها ذلك الوميض الغريب الذى طالمــا أوحى الى لجرى بشعور القلق وعدم الارتياح •

وقال لجرى

ـ لم تكن هذه الأصوات ســوى الجرذان والريح ان الجرذان تستطيع أن تحدث من الأصوات ما لا تتصورين لقد كنت أسمعها أحيانا فى عنبر السفينة ، ثم آلريح ـ ما أعجب أفاعيلها ! تستطيعين أن تحدثى من الريح أى صوت •

وعرفت كاسى أن لجرى كان يتململ تحت نظراتها فلم تجب بل جلست تثبت فيه عينيها بما حملتا من تعبير غريب لا يمت للانس بسبب •

وقال لجرى

ـ والآن تكلمى أيتها المرأة ـ ألا تظنين هذا ؟

قالت كاسى

ـ هل تستطيع الجرذان أن تهبط السلم وتأتى ماشية فىالمدخل، وتفتح بابا أغلقته بالمفتاح ووضعت خلفه كرسيا ؟ ثم تأتى ماشية ، ماشية ، ماشية حتى تبلغ فراشك وتمد يدها اليك هكذا ؟

وكانت كاسى لا تزال مثبتة عينيها اللامعتين فى لجرى وهى تتكلم، وكان هو يحملق فيهــا كرجل جثم على صـــدره كابوس ، حتى اذا ما اختتمت بوضع يدها الباردة كالثلج على يده قفز الى الخلف وهو يسب ويلعن •

ـ أيتها المرأة ! ماذا تعنين ؟ ان أحدا لم يفعل هذا !

قالت كاسى بابتسامة ازدراء أرسلت رعدة البرد فى جسده

ـ آه لا ـ بالطبع لا ـ هل قلت ان أحدا فعل ؟

ـ ولكن هل فعل ـ هل رأيت هذا حقيقة ؟ هيا يا كاسى ـ قولى الحق ـ أفصحى !

قالت كاسى

ـ فى وسعك أن تنام هناك ان أردت أن تعرف

ـ هل أتى هنا من غرفة السطح يا كاسى ؟

قالت كاسى

ـ وما هو هذا ؟

ـ هو الذى حدثتنى عنه .

قالت كاسى فى وجوم عنيد

ـ لم أحدثك بشىء .

فأخذ لجرى يذرع الحجرة رائحا غاديا وهو يتململ

ـ سأفحص عن هذا الذى تحدثت عنه سأنظر فى أمر هـذه الحجرة الليلة . سآخذ مسدسى .

قالت كاسى

ـ افعل ونم فى تلك الحجرة وددت لو رأيتك تفعل أطلق مسدسيك ـ افعل بربك !

وضرب لجرى الأرض بقدمه وأخذ يسب سبا مقذعا

وقالت كاسى :

ـ لا تسب ، فان أحدا لا يعرف من يسمعك . اصغ ! ما هذا !

وقال لجرى فزعا

ـ ماذا ؟

وبدأت ساعة حائط هولندية عتيقة قائمة فى ركن الحجرة دقاتها حتى أكملت فى بطء اثنتى عشرة دقة

ولأمر ما لم يتكلم لجرى ولم يتحرك ، فقد اعتراه رعب غامض ، بينما وقفت كاسى تعد الدقات وهى تنظر اليه وفى عينيهــــا بريق ساخر حاد

وقالت وقد انثنت وفتحت الباب فى الممر ثم وقفت كأنها تنصت:

ـ الساعة الثانية عشرة · حسن ، سنرى الآن

ثم قالت وهى ترفع اصبعا

ـ اسمع ! ما هذا ؟

قال لجرى

ـ لا شىء سوى الريح ألا تسمعينها كيف تهب هبا لعينا ؟

قالت كاسى فى همس وهى تضع يدها على يده وتقوده الى أسفل السلم

ـ تعال هنا ياسيمون أتعرف ما هذا ؟ أصغ !

واذا صرخة داوية تشق الفضاء هابطة السلم من حجرة السطح واصطكت ركبتا لجرى وابيض وجهه فرقا

وقالت كاسى وهى تنظر اليه نظرة ساخرة جعلت الدم يجمد فى عروقه

ـ ألا ترى أن تحضر مسدسيك ؟ لقد حان الوقت للنظر فى هذا الأمر كما تعلم · أود أن تصعد الى الحجرة الآن ، فقد شرعوا فعلا ·

وقال لجرى وهو يسب :

ـ لن أصعد !

ـ ولم لا ؟ ليس هناك شيء اسمه العفاريت كما تعلم ! تعال !

ثم انفتلت كاسى صاعدة السلم اللفاف وهى تضحك وتنظر اليـــه من خلفها

ـ تعال هنا !

وقال لجرى

ـ أنت الشيطان فى ظنى • ارجعى أيتها العجوز ـ ارجعى ياكاسى! لن تصعدى !

ولكن كاسى ضحكت ضحكا وحشيا وانطلقت صاعدة وسمعها تلج أبواب المدخل المؤدية الى غرفة السطح • وهبت ريح قوية أطفأت الشمعة التى كان ممسكا بها ، ومع الريح جاءت الصرخات الغريبــة المخيفة ، وكأنها تدوى فى أذنه •

وفر لجرى كالمجنون الى غرفة الجلوس حيث لحقت به كاسى بعد دقائق ، وكانت شاحبة الوجه هادئة باردة كأنها روح منتقمة ، وفى عينيها ذلك البريق المخيف نفسه

وقالت له

ـ أرجو أن تكون قد اقتنعت •

قال لجرى

ـ تبا لك يا كاسى !

قالت كاسى

ـ ولم ؟ اننى صعدت فقط وأغلقت الأبواب • وما رأيك فى حجرة السطح هذه يا سيمون ؟

قال لجرى

ـ ليس هذا شأنك !

قالت كاسى

ـ آه ، أليس شـــأني ؟ حسن ، على أى حال يسرني أنني لا أنام تحتها

وكانت كاسي قد توقعت اشتداد الريح في تلك الليلة ، فصعدت الى حجرة السطح وفتحت نافذتها والذى حدث بطبيعة الحال هو أنه في اللحظة التى فتحت فيها الأبواب هبت الريح هابطة وأطفأت الشمعة .

كان ذلك الحادث نموذجا من اللعبة التى راحت كاسي تلعبها على لجرى ، حتى انتهى به الأمر الى تطليق فكرة ارتياد حجرة السطح نهائيا ، فأهون منها أن يضع رأسه في فم الأسد وأخذت كاسي خلال ذلك تجمع في الحجرة ليلا والقوم كلهم نيـــام وفي بطء وحذر ، زادا يكفيها هي وايملين فترة من الزمن ونقلت ، قطعـــة قطعة ، أكثر ما في صوانها وصوان ايملين من ثياب وبعد أن أعد كل شيء على هذا النحو أخذتا تترقبان الفرصة السانحة لتنفيـذ خطتهما

واستطاعت كاسي بتملق لجرى ، وبانتهازها فرصـــة فترة كان فيها رضى الطبع ، ان تحمله على أخذها معه الى المدينة المجـــاورة ، الواقعة على النهر الأحمر مباشرة وكانت في أثناء الرحلة ، بمـا حباها الله من ذاكرة أرهفت الى درجة من الصفاء خارقة ، تلحظ كل منحنى في الطريق وتقدر في ذهنها الوقت اللازم لقطعه

ولعل القراء يودون أن يلقوا نظرة خلف الستار حين تهيأ كل شيء للعمل ، ويروا الانقلاب النهائى الذى حدث

اقترب المساء ، وكان لجرى غائبا في رحلة على جواده الى مزرعة مجاورة وظلت كاسي أياما كثيرة على غير عادتهـــا لطيفة رضية ، وبدا أنها ولجرى على خير مايكون الوفاق وليتصورها القارىء الآن مع ايملين في حجرة هذه الفتاة ، مشغولة في فرز ربطتين صغيرتين وترتيبهما

وقالت كاسي

ــ هاتان من السعة بما فيه الكفاية والآن البسى قبعتك ولنبدأ رحلتنا فقد أزف الوقت •

قالت ايملين

ــ ولكنهم يستطيعون أن يرونا

وقالت كاسى فى هدوء

ــ اننى أقصد أن يرونا ألا تعلمين أنهم لابد مطاردونا على أية حال ؟ ان سبيلنا الى الهروب هى هذه ، سننسل من الباب الخلفى ونجرى مجتازين مساكن الفعلة وما من شك فى أن سامبو وكمبو سيريا ننا ، سيطاردا ننا وسنبلغ المستنقع وعندها لن يستطيعا أن يمضيا فى الطراد حتى يعودا وينذرا بأننا هربنا ويأتيا بالكلاب الى آخر هذا كله وفيما هما يتخبطان ويتعثران كما هو شأنهما دائما، سنتسلل أنا وأنت على طول الجدول الممتد خلف البيت ، ونخوض ماءه ، حتى نصل تجاه الباب الخلفى ومن شأن هــذا أن يضلل الكلاب تضليلا تاما ، لأن الرائحة لا يمكن قصها فى الماء •وسيجرى كل من فى البيت بحثا عنا ، وعنــدها سنمرق من البــاب الخلفى صاعدتين الى حجرة السـطح حيث أعددت فراشا طيبا فى أحــد الصناديق الكبيرة ولابد لنا من البقــاء فى الحجرة فترة طويلة ، لأننى أؤكد لك أنه سيقيم الدنيا ويقعدها بحثا عنا وسيحشــد بعض قدامى الملاحظين من المزارع الأخــرى ويطاردنا مطاردة حثيثة وسينقبون عنا فى كل شبر من أرض هذا المستنقع ان من مفاخره التى يتشدق بها أن أحدا لم يفلت منه قط فليطاردنا اذن ما طابت له المطاردة •

وقالت ايملين

ــ ما أحسن ما أحكمت الخطة يا كاسى ! من كان يخطر بباله خطة كهذه سواك ؟

أما كاسى فلم تنم عيناها عن سرور ولا تشف ــ وانما عن حــزم يائس لا أكثر

وقالت وهى تمد يدها لايلمين :

ــ تعالى

وتسللت الهاربتان من البيت فى غير ضوضاء ، ومرقتا فى ظــلال المساء المتجمعة مارتين بالمساكن وأبطأ هبوط الظلام قليــــلا لأن السماء كان يضيء غربها هلال كأنه زورق من الفضة ٠ وحدث ماتوقعت كاسى فما ان بلغتا حافة المستنقعات التى تحيط بالمزرعـــة حتى سمعتا صوتا يدعوهما للوقوف ٠ على أن الصوت لم يكن صوت سامبو بل صوت لجرى الذى أخذ يطاردهما وهو يسب أقذع السباب ولما سمعت ايملين الصوت تخاذلت روحها الضعيفة فأمســـكت بذراع كاسى قائلة

ــ أواه يا كاسى ، سيغمى على

وقالت كاسى وقد استلت خنجرا لامعا صغيرا لوحت به أمام عينى الفتاة

ــ حذار أن تسقطى والا قتلتك !ـ

وأتت المفاجأة بالغرض المقصود منها فلم تسقط ايملين، وأفلحت فى الغوص مع كاسى فى قسم من المستنقع المتشابك الفروع ، عميق مظلم الى درجة استحال معها على لجرى كل الاستحالة أن يفكـــر فى مطاردتهما دون معونة ٠

وقال وهو يقهقه فى شراسة

ــ حسن ، على أن حال قد أوقعتا نفسيهما الآن فى فـــخ ــ يا للفاجرتين ! انهما فى مأمن وستنالان جزاءهما الوفاق على هــذه الفعلة !

وصاح لجرى وقد بلغ المساكن والرجال والنســـاء عائدون من العمل

ــ أهذا أنت يا سامبو يا كمبو ! يا جميع الفعلة ! هاكم هاربتين فى المستنقعات سأعطى أى زنجى يمسكهما خمســة دولارات أعدوا الكلاب ! أعدوا تيجر ، وفيورى ، وبقية الكلاب !

وكانت الاثارة التى أحدثها هذا الخبر عاجلة فهب كثير من الرجال يتطوعون بتقديم خدماتهم اما طمعا فى الجائزة أو مدفوعين بالملق الوضيع الذى هو آفة من شر آفات الرق وجرى بعضهم هنا وبعضهم هناك والتمس البعض المشاعل أو أغصان الصنوبر ·وفك البعض الآخر الكلاب التى زاد نباحها الوحشى الأجش المشهد حركة وهياجا

وقال سامبو بعد أن أتاه سيده ببندقية :

ـ سيدى ، هل نرميهما بالرصاص ان لم نستطع القبض عليهما ؟

قال لجرى

ـ لك أن ترمى كاسى ان شئت ، فقد آن أوانها لتمضى الى الشيطان فهى منه واليه ، أما الفتاة فلا والآن أيها الغلمان كونوا يقظين خفافا خمسة دولارات لمن يأتينى بهما وكأس من الشراب لكل منكم على أى حال

وسارت الفرقة برمتها الى المستنقع على ضوء المشاعل الساطعة وكل من فيها من انسان وحيوان يهتف ويزعق وينبح فى وحشية ، ومن وراء الفرقة عن كثب كل خادم فى البيت وهكذا كان البيت خاويا مهجورا حين تسللت كاسى وايملين عائدتين اليه بالطريق الخلفى · وكانت هتافات مطارديهما وصرخاتهم لا تزال تملأ الفضاء· واستطاعت كاسى وايملين وهما تنظران من نوافذ حجرة الجلوس أن تبصرا الفرقة بمشاعلها وهى توزع نفسها على حافة المستنقع

وقالت ايملين لكاسى مشيرة بأصبعها

ـ أنظرى هناك ! ها قد بدأت المطاردة ! تأملى كيف تتراقص هذه الأنوار ! صه ! انها الكلاب ! ألا تسمعين ! لو أننا كنا الآن هناك لكانت فرص نجاتنا صفرا بربك تختبىء ! عجلى

وقالت كاسى ببرود

ــ لا داعي للعجلة فلقد خرجوا كلهم لاقتناصنا ــ وتلك تسلية السهرة ! سنصعد حالا •

ثم قالت وهي تتناول عمدا مفتاحا من جيب سترة ألقاها لجرى في عجلته

ــ وفى هذه الأثناء سآخذ شيئا لنفقات رحلتنا

ثم فتحت المكتب وتناولت منه لفة من الأوراق المالية عدتها بسرعة •

وقالت ايملين.

ــ آه ، لا تدعينا نفعل هذا !

وقالت كاسى

ــ لا نفعل ! ولم لا ؟ أتريدينا أن نموت جوعا فى المستنقعات ،أم نحصل على المال الذى نؤدى منه نفقات رحلتنا الى الولايات الحرة ؟ان المال يصنع كل شيء يا صبية

قالت هذا ثم أودعت المال صدرها

وقالت ايملين فى همس المكروب

ــ هذه سرقة !

وقالت كاسى وهى تضحك فى ازدراء

ــ سرقة ! ان الذين يسرقون الجسد والروح يجدر بهم ألا يحدثونا فى هذا فكل ورقة من هذه الأوراق مسروقة ــ مسروقة من مخلوقات مكدودة جائعة فقيرة قضى عليها أن تمضى آخر الأمر الى الشيطان ليغنى هو فليتكلم عن السرقة ! ولكن هيا ، ولنصعد الى السطح لقد اختزنت هناك عددا من الشموع وبعض الكتب لتزجية الفراغ وثقى أنهم لن يأتوا هناك بحثا عنا فاذا فعلوا لعبت لهم دور العفريت

ولما بلغت ايملين حجرة السطح وجدت صندوقا ضخما كان قد جلب فيه من قبل بعض الأثاث الثقيل ، مقلوبا على جنبه بحيث كانت فتحته تواجه الجدار أو على الأصح الطنف وأضاءت كاسى مصباحا

صغيرا ثم زحفتا تحت الطنف واستقرتا فى الصـــندوق وكان مفروشا بحشيتين صغيرتين وبعض الوسائد وعلى مقربة منه ملىء صندوق بالشموع والمأكولات والثياب اللازمة لرحلتهما ، وكانت كاسى قد اعدتها حزما لا تشغل الا أقل حيز

وقالت كاسى وهى تثبت المصباح فى خطاف صغير كانت قد سمرته فى جنب الصندوق لهذا الغرض

ــ فليكن هذا بيتنا مؤقتا رأيك فيه ؟!

ــ أواثقة أنت أنهم لن يأتوا ويفتشوا هذه الحجرة ؟

قالت كاسى

ــ وددت لو رأيت سيمون لجرى يفعل أجل انهم لن يأتوا وسيسره أن يظل بعيدا عنها أما الخدم فان الواحد منهم ليؤثر أن يقف ليرمى بالرصاص عن أن يحضر هنا !

واضطجعت ايملين على وسادتها بعد أن اطمأنت بعض الاطمئنان

ثم قالت ببساطة

ــ ماذا كنت تعنين يا كاسى بقولك انك ستقتلينني

قالت كاسى

ــ كنت أريد منعك من السقوط مغشيا عليك وقد منعتك فعلا والآن أقول لك يا ايملين ان عليك أن توطنى نفسك على ألا تسقطى مغشيا عليك مهما حدث فلا داعى لهذا أيا كان ولولا أننى منعتك لوضع هذا الشقى يده عليك الآن

واقشعرت ايملين

وظلت كلتاهما صامتة برهة وشغلت كاسى نفسها بقراءة كتاب فرنسى أما ايملين التى غلبها التعب فقد أسلمت نفسها لاغفـــاءة ونامت بعض الوقت ثم أيقظتها صيحات ونداءات عالية مصـحوبة بوقع حوافر الخيل ونباح الكلاب فهبت من نومها وانبعثت منهـا

قالت كاسى

ـ لو سمعوا شيئا لزادهم هذا حرصا على تجنب الحجرة ليس هناك من خطر ، ففى وسعنا أن نحدث لها شيئا من ضجيج ، فلن يكون فى هذا سوى تعزيز ما نبغى من أثر

وأخيرا اشتمل الليل الذى انتصف البيت بسكونه العميق ومضى لجرى الى فراشه وهو يلعن حظه ويقسم ليتزلن فى الغد شر انتقام بالهاربتين

صيحة خافتة

وقالت كاسى فى رباطة جأش

ـ ليس هذا الا صوت المطاردين وقد عادوا فلا تخشى بأسا أنظرى من هذه الفرجة فى الخشب ألا ترينهم كلهم هناك ؟ على سيمون أن يتخلى عن المطاردة هذه الليلة أنظرى كيف يغطى الوحل جواده من الغوص فى المستنقع كذلك تبدو الكلاب مطأطئة الرأس أيه يا سيدى الفاضل ، ليك أن تجرب هذا السبق ثانية وثالثة ـ فان الصيد قد أفلت .

وقالت أيملين

ـ أوه ، لا تفوهى بكلمة ! فماذا لو سمعوك ؟

الفصل الأربعون

الشـــهيد

«٠لا تحسبن البار قد نسيته السماء !
وان حرمته الحياة عطاياها المألوفة —
وان مضى الى حتفه بقلب دام محطم ،
محتقراً مهينا من الناس !
فلقد دون الله كل أيام حزنه ،
وأحصى كل دمعة مرة من دموعه ،
وسيكون فى سنوات النعيم المقيم
خير عوض لآلام الأبرار فى هذه الأرض ٠ »

برايانت

لا بد للطريق مهما طال أن يبلغ نهايته — وللليل مهما اشتد ظلامه أن ينبلج صبحه ٠ ولا يفتأ مرور اللحظات حسب ناموس أبدى صارم أن يعجل بنهار الأشرار فيستحيل ليلا دائمـــا ، وبليـــل الأبرار فيستحيل نهارا مقيما لقد صاحبنا صديقنا المسكين الى الآن فى وادى العبودية ، عابرين أولا حقولا مزدهرة من اليسر والأريحية ،ثم ألوانا من الحرمان القاسى من كل ما هو عزيز على الانسان ٠وانتظرنا معه بعد ذلك فى جزيرة مشرقة حنت عليه فيها أيد كريمـــة فكست

بالأزهار أغلاله ، واخيرا تبعناه حين انطفأ من حياته آخر شعاع من الأمل الأرضى ، ورأينا كيف أنار له غــــير المنظور وسط هــــــذا الليل البهيم بنجوم تسطع بضياء جديد له مغزاه ودلالته

فأنظر الآن كوكب الصبح فوق قمم الجبال ، والرياح والأنواء من غير هذه الأرض تدل على أن أبواب النهار تتفتح

لقد زاد فرار كاسى وايملين طبع لجرى فظاظة وشراسة ، ووقــع غضبه المجنون على رأس توم الأعزل كما كان منتظرا • ذلك أنه حين أذاع النبأ فى عجلة بين عماله ، لمعت عين توم بنور فجائى وارتفعت يداه بحركة فجائية لم تفت لجرى ورأى أنه لم ينضم الى جماعة المطاردين وخطر له أن يجبره على الانضمام اليهم ، ولكنه وقد خبر ما خبر من صلابته حين يؤمر بالاشتراك فى أى عمل غير انسانى ، لم يشأ فى عجلته أن يقف ليدخل واياه فى صراع أيا كان

بقى اذن توم فى مكانه ومعه بعض الذين تعلموا منه الصــــلاة ، وابتهلوا جميعا الى الله أن يعين الهاربتين على النجاة

فلما عاد لجرى مهزوما خائبا بدأ كل ما كان يعتمل فى صدره من حقد على عبده منذ أمد طويل يتجمع فى صورة يائسة منكرة أو لم يتحده هذا الرجل ــ تحديا مطردا قويا عنيدا ــ مذ ابتاعه ؟ ألم يكن فى هذا الرجل روح كانت على صمتها تحرقه كأنها نار الجحيم ؟

وقال لجرى تلك الليلة وهو أرق فى فراشه

ــ انى لأمقته انى لأمقته ! أليس ملكا لى ؟ ألا أستطيع أن أصنع به ما شئت ؟ لست أدرى من مانعى ؟

• ثم ضم قبضته فى عنف وهزها كأن فى يديه شــيئا يستطيع أن يمزقه اربا

ولكن توم كان من جهة أخرى خادما أمينا كبير القيمة ، ومــع أن لجرى ازداد بغضا له لهذا السبب ، فان هذا الاعتبار لم يزل يقيــده بعض التقييد •

واعتزم فى صباح الغد كذلك ألا يكلم توم بشىء بعد ، وأن يجمع فرقة من المزارع المجاورة مزودة بالكلاب والبنادق ، ويحاصر المستنقع ويبدأ المطاردة وفق خطة منظمة فاذا نجحت المطاردة فيها ونعمت ، وألا دعا توم ليمثل أمامه ، ثم ــ وهنا حرق أسنانه وغلى الدم فى عروقه ــ ثم حطمه تحطيما أو ــ وهمس باطنه شيئا رهيبا أمنت عليه نفسه

تقولون ان صالح السيد ضمان كاف للعبد ، ولكن الانســـان اذا ملكته سورة الارادة المجنونة باع نفسه واعيا صاحيا للشيطان ليحقق مآربه ، أفيكون أشد حرصا على جسد جاره منه على نفسه ؟

وقالت كاسى فى الغد وهى فى حجرة السطح تستكشف من فرجة الخشب

ــ حسن ، ستعود المطاردة اليوم ثانية !

وكان هناك ثلاثة فرسان أو أربعة يقفزون بجيادهم حول المساحة القائمة أمام البيت ، ومجموعة أو اثنتان تتألف كلتاهما من ثــلاثة كلاب غريبة تقاوم الزنوج القابضين عليها وهى تنبح وتعوى بعضهــا على بعض

وكان اثنان من هؤلاء الرجال من ملاحظى المزارع المجاورة ، وكان الباقون من رفاق لجرى فى حانة مدينة قريبة أتوا للتسلى بالمشاركة فى الطراد ولعله ليس فى الامكان تصور جماعة أشرس مظهرا من هذه الجماعة وكان لجرى يوزع عليهم البراندى بسخاء كما كان يوزعه على الزنوج الذين جردوا من مختلف المزارع لأداء هذه الخدمة لأن القصد كان جعل كل خدمة من هذا القبيل بين الزنوج أشبه بيوم عيد .

ووضعت كاسى أذنها على فرجة الخشب ، واذ كان هواء الصبــاح يهب مباشرة على البيت فقد استطاعت أن تسمع من موضعها كثيرا من حديث القوم . وعلت سخرية بالغة مظهر الجد الصارم المظلم المرتسم على وجهها وهى تصغى وتسمعهم يقسمون الأرض فيمــا بينهم

ويناقشون ما لنكلاب من فضائل ينافس بعضها البعض ، ويصدرون الأوامر فيما يتصل باطلاق الرصاص ، وبمعاملة كل من الآبقتين اذا قبض عليهما

وتراجعت كاسي ، ثم ضمت راحتيها وتطلعت الى فوق وقالت

ـ أيها الاله العظيم القدير ! كلنا خطاة ، ولكن ما الذى اقترفناه نحن أكثر من سائر العالم حتى نعامل هذه المعاملة ؟

وكان فى وجهها وصوتها وهى تتكلم جد رهيب ٠

ثم قالت وهى تنظر الى ايملين

ـ لولا وجودك أنت يا بنية ، لذهبت اليهم ، ولحمدت لأى منهم أن يقتلنى رميا بالرصاص فما جدوى الحرية لى اذا نلتها ؟أتستطيع أن ترد الى ونذى أو تعيدنى سيرتى الأولى ؟

وكان يخالج ايملين فى براءتها بعض الخوف حين ترى كاسى فى أحلك حالاتها النفسية ونظرت نظرات الحيرة ولكنها لم تجب وكل ما فعلته أنها تناولت يدها وضغطتها ضغطة رقيقة حارة

وقالت كاسى وهى تحاول أن تسحب يدها

ـ لا تفعلى ستجعليننى آخر الأمر أعتاد حبك ولست أريد أن أحب شيئا ثانية !

وقالت ايملين

ـ يا عزيزتى المسكينة كاسى ! لا يكن هذا شعورك ! فعسى الله ان وهبنا حريتنا ، أن يرد لك ابنتك أو على الأقل سأكون بمثابة الابنة لك ؛ أنا أعلم أننى لن أرى أمى المسكينة قط ٠ ولكن سأحبك يا كاسى ، سواء أحببتنى أنت أو لم تحبينى !

وعقد النصر للروح الرقيقة البريئة براءة الأطفال وجلست كاسى الى جوارها وطوقت عنقها بذراعها ومرت بيدها على شعرها البنى الناعم ، وأدهش ايملين ما رأت فى عينيها الرائعتين من جمال حين رققتهما الدموع ٠

وقالت كاسى

ــ أواه يا ايم ! انى جائعــة ظمأى لولدى ، وسراج عينى ينطفىء شوقا اليهما !

ثم قالت وهى تدق صدرها :

ــ هنا ! هنا ! كله خاو مهجور . لو أن الله رد الى ولدى لاستطعت أن أصلى

قالت ايملين

ــ عليك أن تثقى به يا كاسى فهو أبونا !

قالت كاسى

ــ ان سخطه علينا لقد تولى عنا غاضبا

قالت ايملين

ــ لا يا كاسى ! سيكون بارا بنا ! فلنعقد عليه أملنا اننى لم أفقد الأمل قط .

***

كان الطراد طويلا ، نشيطا ، دقيقا ، ولكنه أخفق

وتطلعت كاسى فى نشوة ساخرة الى لجرى من تحتها وهو ينــزل عن جواده متعبا متخاذل النفس

وقال لجرى وهو يتمدد فى حجرة الجلوس

ــ والآن يا كمبو اذهب وائتنى بذلك العبد توم فورا ! ان هذا العجوز اللعين وراء هذا الأمر كله ، وسأستل الشر من جلده الأسود العجوز أو أعرف السبب !

وكان سامبو وكمبو على شدة كرههما الواحد لأخيه يجمعهما كره لا يقل شدة لتوم . فقد كان لجرى قد أخبرهما أول الأمر أنه ابتاعه ليجعل منه ملاحظا عاما فى غيابه ، فخلق هذا فى صدرهما حقدا على توم اشتد وتأصل فى طبيعتيهما المنحطتين المتملقتين حين رأياه قـد

أصبح بغيضا عند سيدهما لذلك مضى كمبو وكله رغبة فى تنفيذ أوامره ٠

وسمع توم الرسالة بقلب مدرك للنذير من قبل ، لأنه كان على علم بكل الخطة التى وضعتها الآبقتان للفرار ، وبمخبئهما الحالى وكان على بينة من ذلك الطبع الشرير الذى فطر عليه الرجل الذى عليه أن يواجهه ، ومن سلطانه الطاغى المستبد ولكنه شعر بأنه قوى فى الله قوة تتيح له أن يلقى الموت خيرا من أن يشى بهاتين العاجزتين ٠

ووضع سلته أرضا الى جانب الصف وقال وهو ينظر الى فوق

ـ فى يديك أستودع روحى ! لقد فديتنى أيها الرب اله الحق

ثم أسلم نفسه فى هدوء الى قبضة كمبو الوحشية الخشنة

وقال له المارد وهو يجره

ـ نعم ، نعم ٠ ستنال جزاءك الوفاق الآن ! أؤكد لك أن السيد غاضب عليك غضبا شديدا ٠ لا تحاول التملص الآن ! فأنا أقول لك انك ستنال عقابك ما فى ذلك شك ! أنظر الآن حالك بعد أن ساعدت اماء السيد على الفرار ! انظر ما سيصيبك !

ولكن كلمة من هذه الكلمات الوحشية لم تفزع تلك الأذن ـ فقد كان هناك صوت أعلى يقول « لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر » ٠

وتجاوب كل ما فى جسد هذا المسكين من أعصاب وعظام مع هذه الكلمات كأن أصبع الله قد مسته ، وأحس بقوة ألف رجل وقد اجتمعت فيه ٠ وفيما هو ماض بدت له الأشجار والحراج ، وأكواخ عبوديته ، ومسرح هوانه برمته ، كل أولئك كان يدور كالدوامة مارا به كما تدور المشاهد تمر بها عربة مندفعة على الطريق وخفقت نفسه ـ لقد بدا وطنه قريب المنال ـ وأزفت ساعة الخلاص ٠

وقال لجرى وهو يمشى اليه ويمسكه من طوق سترته متجهما

ويخرج ألفاظه من بين أسنانه فى نوبة من نوبات الغضب العنيد

ـ حسن يا توم ! أتعلم أننى صممت على قتلك ؟

ـ هذا محتمل جدا يا سيدى

قال لجرى بهدوء كالح رهيب

ـ لقد ـ صممت ـ على هذا ـ بعينه ـ يا توم ، ما لم تخبرنى بما تعرفه من أمر هاتين الفتاتين !

ووقف توم صامتا

وقال لجرى وهو يضرب الأرض بقدمه مزمجرا كالأسد الهائج

ـ أتسمعنى ؟ تكلم

وقال توم بنبرات قاطعة حازمة بطيئة

ـ ليس عندى ما أقوله يا سيدى

قال لجرى

ـ أتجرؤ على القول انك لا تعرف أيها المسيحى الأسود العجوز ؟

وصمت توم

وأرعد لجرى ثم لطمه بعنف وهو يقول

ـ تكلم ! أتعرف شيئا ؟

ـ أعرف يا سيدى ، ولكننى لا أستطيع أن أخبرك بشىء انما فى استطاعتى أن أموت

وتنفس لجرى نفسا طويلا • ثم أخذ توم من ذراعه بعد أن كظم غيظه ، وأدنى وجهه من وجه توم حتى كاد يمسه ، وقال له بصوت رهيب

ـ اسمع يا توم ! قد تتوهم ـ لأننى أطلقتك من قبل ـ أننى لا

أعنى ما أقول • ولكنى فى هذه المرة صممت ، وحسبت الثمن لقد كنت دائما تعارضنى وتعصانى ، والآن أنا غالبك أو قاتلك ـ احدى اثنتين • سأحصى كل قطرة من الدم فى جسدك ، وأنتزعها منك قطرة قطرة حتى تسلم

ونظر توم الى سيده وأجاب

ـ سيدى ، لو أنك مريض أو مكروب أو مشرف على الموت وكان فى استطاعتى أن أنقذك ، لأعطيتك دم قلبى • ولو كان فى أخذك كل قطرة من الدم فى جسدى هذا العجوز المسكين انقاذ لنفسك الثمينة لبذلتها عن طيب خاطر • وا أسفاه يا سيدى ! لا تجلب هذه الخطيئة الكبرى على نفسك ! ففى هذا أذى لك أبلغ من أذاى ! افعل أسوأ ما تستطيع ، فان آلامى ستنتهى عاجلا • ولكنك ان لم تتب فان آلامك لن تنتهى قط !

وأحدثت هذه الدفقة من الشعور سكون لحظة كما تحدث دفقة قصيرة عجيبة من موسيقى علوية تسمع وسط هدوء العاصفة

ووقف لجرى حائرا مدهوشا ونظر الى توم وساد المكان صمت عميق سمعت فيه عقارب ساعة الحائط العتيقة وهى تعد بلمساتها الصامتة آخر لحظات الرحمة وفرص الاختبار للقلب المتحجر

ولكنها لم تكن غير لحظة • كانت وقفة مترددة واحدة ـ ورعدة متراخية مذبذبة واحدة ـ ثم عادت روح الشر ثانية ، وقد تضاعفت عنفوانها سبعة أضعاف وراح لجرى يضرب ضحيته وهو يرغى ويزبد غضبا حتى صرعها أرضا

***

ان مشاهد الدم والقسوة تؤذن الأذن والقلب • ما يجرؤ الانسان على فعله لا يجرؤ على سماعه • والألم الذى فرض على أخ فى الانسانية وفى العقيدة أن يقاسيه لا يمكن قصه علينا حتى فى مخادعنا لأنه مؤذ متلف للنفس ! ومع ذلك فهذه الجرائم ، يا بلادى ، تقترف فى ظل قوانينك ! وأنت أيها المسيح ، آن كنيستك ترقب هذه الجرائم ولا تكاد تحرك ساكنا

ولكن انسانا فى سالف العصر أحالت آلامه أداة تعذيب واذلال وعار رمزا للمجد والشرف وحياة الخلود ، وحيث تحل روح هـذا الانسان ، فلا ضرب السياط المهين ، ولا سـفك الدم ، ولا صب الشتائم يقوى على النيل من جلال المعركة الأخيرة التى يخوضها المؤمن بربه

ليت شعرى أكان وحيدا فى تلك الليلة الليلاء ، أكان وحيداً ذلك الذى كانت روحه المحبة الباسلة تناضل فى ذلك المخزن العتيـق وتحتمل اللطم وجلد السياط الوحشى ؟

كلا ! فقد كان يقف الى جواره شخص لا يراه غيره ، هو شخص المسيح

وكان يقف الى جواره آخر أيضا ، هو المجـرب ـ مستترا وراء الارادة الغاشمة المجنونة ـ يستحثه كل لحظة ليجنب نفسه هـذا العذاب الأليم بافشاء سر البريئتين ولكن القلب المستقيم الجرىء كان راسخا ثابتا على الصخرة الأبدية فقد كان يعلم ، كما علـم سيده من قبل ، أنه اذا خلص آخرين لن يستطيع تخليص نفسه ،ولم يستطع أهول العذاب أن ينتزع من فمه غير كلمات الصلاة والاتكـال على الهه

وقال سامبو وقد هزه على الرغم منه صبر ضحيته

ـ لقد انتهى أو كاد يا سيدى

وصاح به لجرى

ـ اجلد ولا تقف حتى يذعن ! اضرب ! اضرب ! سأنتزع كل قطرة من دمه ان لم يعترف !

وفتح توم عينيه وتطلع الى سيده قائلا

ـ أيها المخلوق البائس المسكين ! لم يعد أمامك مزيد تستطيعه ! انى أغفر لك من صميم قلبى

ثم غاب عن وعيه تماما .

وقال لجرى وهو يتقدم ليلقي عليه نظرة

ـ يقينا لقد انتهى نهائيا أجل ، لقد انتهى ! حسن ، لقد خرس فمه آخر الأمر ـ وفى هذا بعض العزاء !

أجل يا لجرى ، ولكن من يخرس ذلك الصـــوت فى نفسك ؟ نفسك التى فاتتها التوبة ، وفاتتها الصلاة ، وفاتها الأمـل ، والتى بدأت تستقر فيها فعلا تلك النار التى لن تطفأ !

ومع ذلك فان توم لم يكن قد انتهى تماما · ذلك أن كلماته العجيبة وصلواته التقية قد وخزت قلبى الأسودين المستوحشين اللذين كانا الأداة لما حل به من قسوة ، وما ان انسحب لجرى حتى أنزلاه وحاولا فى جهلهما أن يرداه الى الحياة ـ وكأنهما يسديان اليه بذلك يدا

وقال سامبو

ـ حقا لقد أتينا شرا مستطيرا وانى لأرجو أن يكـون المسئول عنه هو السيد لا نحن

ثم غسلا جراحه ـ وجهزا له فراشا خشنا من نفاية القطن يرقـد عليه ، وتسلل أحدهما الى البيت وسأل لجرى جرعـــة من البرندى متظاهرا بأنه متعب وأنه يريدها لنفسه وعاد بالشراب وصبه فى حلق توم

وقال كمبو

ـ آه يا توم ! لقد عاملناك شر معاملة !

وقال توم بصوت ضعيف

ـ أنى أغفر لكما من أعماق قلبى !

وقال سامبو

ـ ولكن يا توم ! قل لنا من هو المسيح ؟ المسـيح الذى وقف الى جوارك هذه الليلة بطولها ! ـ من هو ؟

وأيقظت الكلمة الروح المتهافتة المتداعية · فتدفقت من فمه عبارات

حارة عن ذلك الانسان العجيب ـ عن حياته ، وموته ، وخلـــوده ، وقوة خلاصه ٠

وبكى المتوحشان

وقال سامبو

ـ لم لم أسمع بهذا قط من قبل ؟ ولكنى أومن ـ ولا حيلة لى فى هذا ! أيها السيد المسيح ترفق بنا !

وقال توم

ـ أيها المسكينان ! انى مستعد أن أحتمل كل ما بى من عذاب ان كان هذا يهديكما للمسيح ! رب هبنى من فضلك هاتين النفســـين أيضا !

وقد أجيبت صلاته !

الفصل الحادى والاربعون

السيد الصغير

بعد يومين كان شاب يسوق عربة خفيفة صاعدا طريق الأشجار الصينية ، ثم رمى بالعنان على عنق الجواد فى سرعة وقفز من العربة وسأل عن صاحب البيت

وكان الفتى هو جورج شلبى ولا بد لنا من عـودة بالقارىء الى الوراء لنرى كيف جاء جورج الى بيت لجرى ٠

كان خطاب مس أوفيليا لمسز شلبى قد حجز لسوء الحظ شهرا أو شهرين فى مكتب بريد ناء قبل أن يصل الى يد صاحبته ٠ وكان توم بطبيعة الحال فقد فقد أثره فى مستنقعات النهر الأحمر القصية قبل أن تتسلم مسز شلبى الخطاب

وقرأت مسز شلبى النبأ فى قلق بالغ ، ولكن اتخاذ أى اجراء ناجز فى الأمر كان ضربا من المحال ٠ ذلك أنها كانت فى ذلك الحين تمرض زوجها الذى كان مريضا يهذى من برحاء الحمى ٠ وكان الفتى جورج شلبى ، بعد أن شب عن الطوق وأصبح شابا فارع القوام ، يلازمهـا مساعدا أمينا لها وسندا وحيداً فى ملاحظة أعمال أبيه ٠ وكانت مس أوفيليا قد حرصت على أن ترسل اليهم اسم المحامى الذى كان يصرف أعمال أسرة سانت كلير ، ولم يكن ممكنا ، فى هذا الطارىء ، اتخـاذ أى اجراء أكثر من الكتابة لهذا المحامى للاستفسار عن الأمر ٠ ثم مات مستر شلبى بعد أيام ، فتلت موته بطبيعة الحال زحمة فى العمـل استغرقت جهود الأسرة فترة من الزمن ٠

وقد أظهر مستر شلبى ثقته فى كفاية زوجته بتعيينها الوصـيـة

دون سواها على تركته ، وهكذا ألقى على عاتقها فورا قدر من العمل ضخم معقد .

وعكفت مسز شلبى ، بهمتها المعهودة ، على حل مشكلات هـــذه التركة المعقدة ، وانشغلت هى وجورج فترة بجمع الحسابات وفحصها وببيع بعض العقار ، وأداء الديون ، لأنها اعتزمت أن تصل فى شأن التركة الى وضع واضح ملموس أيا كانت الحقائق التى سيسفر عنها هذا كله . ووصلهما فى أثناء ذلك خطاب من المحامى الذى أحالتهمـا عليه مس أوفيليا يقول فيه أنه لا يعلم من أمر توم شيئا ، وانه بيــع فى مزاد عام ولا علم له بشىء عن الموضوع أكثر من أنه تســـــلم ثمنه .

ولم تكن هذه بالنتيجة التى يطمئن اليها جورج ولا مسز شلبى وعلى ذلك اعتزم بعد شهور ستة أن يذهب الى نيو أولينز بنفســـه منتهزا فرصة أداء مهمة كلفته بها أمه فى أدنى النهر ، وأن يواصـــل البحث والتقصى بهمة لعله يوفق الى الكشف عن مكان توم ورده الى الأسرة

وانقضت شهور من البحث لم يحالفه فيها التوفيق ثم وقـــع بمحض الصدفة على رجل فى نيو أورلينز اتفق أن كانت عنده المعلومات المنشودة وهكذا استقل بطلنا الباخرة الى النهر الأحمر مزودا بالمال معتزما العثور على صديقه القديم وشراءه

وما أن وصل الى البيت حتى أذن له بالدخول ، فوجد لجرى فى غرفة الجلوس

واستقبل لجرى الضيف الغريب بضرب من الضيافة الجـافية وقال الفتى

– علمت أنك ابتعت فى نيوأولينز عبدا يدعى توم ، وكان من قبل فى بيت أبى ، وقد جئت لأرى هل أستطيع استرداده بالمال

وعلت جبين لجرى غبرة ثم انفجر يقول فى غضب

– نعم لقد اشتريت هذا العبد ، وبثمن فادح قاتله الله ! انه شر من

عرفت من العبيد ، فهو كلب وقح سليط متمرد ! فقد حرض على الزنوج ليهربوا ، وهرب فتاتين تساوى الواحدة منهما ثمانمائة دولار أو ألفا وقد اعترف بفعلته هذه ، ولما أمرته بأن يخبرنى بمكانهما قال انه يعرف ولكنه يأبى أن يشى بهما • وثبت على عناده هذا مع أننى جلدته أشد مما جلدت أى زنجى فى حياتى • وأعتقد أنه يحاول أن يموت ، ولكنى لا أعلم هل يوفق فى هذا •

وقال جورج فى عنف

ـ أين هو ؟ دعنى أره •

وامتقعت وجنتا الشاب وقدحت عيناه الشرر ، ولكنه تماسك فلم يقل شيئا بعد

وقال غلام كان ممسكا بجواد جورج

ـ انه فى ذلك المخزن

ورفس لجرى الغلام وسبه ، ولكن جورج تحول قاصدا المخـــزن دون أن يزيد كلمة

كان قد مضى على توم يومان وهو راقد عقب الليلة القاضـية ، لا متألما ـ لأن كل عصب حساس للألم كان قد كل وتلف ـ بـل فى ذهول هادىء أكثر الوقت ، لأن نواميس الجسد القوى المفتول أبت أن تطلق الروح الحبيسة فورا • وتسلل الى مكانه فى ظلمة الليـل بعض هذه المخلوقات المهجورة المسكينة التى اقتطعت من سـاعات راحتها الضئيلة وقتا ترد اليه فيـه بعض ما كان يسـخو به من خدمات المحبة • نعم ان هؤلاء التلاميذ الفقراء لم يكن عندهم مايعطونه الا القليل ـ ليس الا كأس الماء البارد ، ولكنهم أعطوها بكل قلوبهم •

وانحدرت الدموع فوق هذا الوجه الأمين الذى فقد حسه ـ دموع التوبة المتأخرة فى الوثنيين الجهلة المساكين ، الذين بعث الندم فيهم محبته وصبره المحتضران ؛ وفتحت الصلوات الحارة التى رفعـوها فوق جسده عيونهم أخيرا الى وجود اله لم يكادوا يعـرفون عنه الا

اسمه ، ولكنه لا يبتهل اليه القنب الجاهل المتلهف ويرده خائبا •

وكانت كاسى قد تسللت من مخبئها واسترقت السمع فعلمت بالتضحية التى بذلها توم فى سبيلها هى وايملين ، فمضت اليه فى الليلة البارحة متحدية خطر افتضاح أمرها واذ مست الكلمات الأخيرة القليلة التى وجد الرجل المحب فى نفسه فضلة من قوة للنطق بها ، فقد انجاب عنها شتاء اليأس الطويل وذاب ثلج السنين، فبكت المرأة الحزينة القانطة وصلت •

ولما دخل جورج المخزن أحس دوارا فى رأسه ووجعا فى قلبه

وقال وهو يركع بجواره

ــ أممكن هذا ــ أممكن هذا ! أيها العم توم ، يا صديقى القديم المسكين ، يا صديقى المسكين !

واخترق شيء فى هذا الصوت أذن الرجل المحتضر ، فحرك رأسه فى رفق ، وابتسم ، ثم قال

« يستطيع الله أن يجعل فراش المحتضر

ناعما مريحا كأنه الوسائد من الريش »

وانحدرت من عينى الشاب دموع مشرفة لقلبه الجرىء وهوينحنى فوق صديقه المسكين

ــ أيها العم توم العزيز ! بربك استيقظ ــ بربك كلمنى مرة ثانية! أنظر الى ! أنا جورج ــ جورج ، فتاك الذى تحبه ألا تعرفنى ؟

وقال توم وهو يفتح عينيه ويتكلم بصوت ضعيف

ــ سيدى جورج ! سيدى جورج !

ونظر حائرا مدهوشا

ولكن الفكرة أخذت تملأ نفسه فى بطء ، وغدت العين الشاردة

ثابتة نيرة ، وأضاء الوجه كله ، وضمت اليدان الصلبتـان ، وجرت الدموع على الخدين

« تبارك الله ! انه ــ أنه ــ انه كل ما كنت أبغى ! انهم لم ينسونى • نشد ما يبعث هذا الدفء الى نفسى ويطيب به قلبى العجوز الآن أموت راضيا ! باركى يا نفسى الرب !

وقال جورج فى لهجة عنيفة :

ــ انك لن تموت ! يجب ألا تموت ، وألا تفكـــر فى الموت انما جئت لأشتريك وآخذك الى البيت

ــ أواه يا سيدى جورج ، لقد تأخرت جدا فقد اشترانى الله ، وهو آخذنى الى بيته ــ وأنا أشتاق الى الذهاب • فان السماء خير من كنتك •

ــ أواه ، لا تمت ! سيقتلنى هــذا ! ــ ســيفطر قلبى التفكير فيما قاسيت ــ وفى رقدتك هنا فى هذا المخزن العتيق ! أيهاالمسكين، أيها المسكين !

وقال توم جادا

ــ لا تدعنى مسكينا لقد كنت مسكينا ، ولكن هــذا كله مضى وانقضى الآن وأنا الآن واقف بالباب فى طريقى الى المجـد آه يا سيدى جورج ! لقد أقبلت السماء ! لقد ظفرت بالنصر ! لقـــد أعطانيه الله تبارك اسمه !

وخشع جورج لما كان فى العبارات المتكسرة من نبرات القـــوة والتشديد والتوكيد فجلس شاخصا فى صمت •

وقبض توم على يده ومضى يقول

ــ عليك ألا تقول لكلو ، هذه المسكينة ،كيف وجدتنى ! ــفسيكون وقع هذا شديدا على نفسها قل لها فقط انك وجدتنى منطلقا الى المجد ، وانه لم يكن ممكنا أن أبقى هنا من أجل أى انسان كائنـا من

كان . وقل لها ان الله وقف معى فى كل مكان وزمان ، ويسر لى كل شىء .

يا للأولاد المساكين ، وللطفلة الصغيرة ! لكم فطر الحزن قلبى العجوز لأجلهم المرة بعد المرة ! قل لهم جميعا أن يتبعونى - يتبعونى! وأبلغ محبتى لسيدى ، ولسيدتى الطيبة العزيزة ، ولكل من فى البيت ! أنك لا تعرف ! فانى أحبهم جميعا ! أحب كل مخلوق ، أينما كان ! - لا شىء الا المحبة ! آه يا سيدى جورج ، ما أعجب أن تكون مسيحيا !

وفى هذه اللحظة أقبل لجرى يتلكأ الى باب المخزن ،وأطل منه وعلى وجهه الفظ سيماء عدم الاهتمام المتكلف ثم انصرف

وقال جورج محنقا

- يا لابليس العجوز ! انه عزاء للمرء أن يذكر أن الشيطان سيجزيه عن هذه الفعلة يوما ما !

فقال توم وهو يقبض على يده

- أواه ، لا تقل هذا ! - أواه - يجب ألا تقوله ! انه مخلوق شقى مسكين ! ان التفكير فى نهايته مريع ! وا حسرتاه له ! لو انه استطاع أن يتوب لغفر الله له الآن ، ولكننى أخشى أنه لن يتوب قط

وقال جورج

- أرجو ألا يفعل انني لا أريد قط أن أراه فى السماء

- صه يا سيدى جورج ! - ان قولك هذا يقلقنى . لا يكن هذا شعورك . أنه لم يوقع بى أذى حقيقيا - ولم يفعل الا أن فتح لى باب السماء ، هذا كل ما فى الأمر !

فى هذه اللحظة تداعت نوبة العافية الفجائية التى أضفتها على الرجل المحتضر فرحة اللقيا بسيده الصغير . فخارت قواه دفعة واحدة ، وأغمض عينيه ، وأصاب وجهه ذلك التغير النورانى الغامض المنبىء بالدنو من عوالم جديدة

وبدأت أنفاسه تتردد طويلة عميقة ، وراح صدره العريض يعلـــو ويهبط فى ثقل وكان التعبير المرتسم على وجهه تعبير الرجل الظافر المنتصر

وقال فى صوت يصارع الضعف البشرى

ـ من ـ من ـ من يفصلنا عن محبة الله ؟

ثم نام وعلى فمه ابتسامة

وجلس جورج وقد سمرته فى مكانه الرهبة والخشوع ، فقد خيل اليه أن المكان مقدس ، وفيما هو يسبل العينين الميتتين وينهض من جوار الميت تملكته فكرة واحدة دون غيرها ـ هى الفكرة التى أعرب عنها صديقه القديم الساذج « ما أعجب أن تكون مسيحيا ! »

ثم تحول ، وكان لجرى واقفا خلفه عابسا متجهما

وكان فى مشهد الموت شىء كبح من سورة الشباب الطبيعية ولم يثر وجود الرجل فى نفس جورج الا التقزز ، ولم يحس الا افـع يدفعه الى الانصراف بعيدا عنه بأقل ما يستطيع من كلام

وقال للجرى وهو يتفرس فيه بعينيه السمراوين الحادتين مشيرا الى الميت

ـ لقد نلت منه كل ما تستطيع فكم أدفع لك ثمنـــا لجثته ؟ سأحملها بعيدا وأدفنها دفنا كريما

وقال لجرى فى شراسة

ـ اننى لا أبيع الزنوج الميتين ولك أن تدفنه حيث شئت ومتى شئت

وقال جورج بلهجة الآمر لغلامين أو ثلاثة كانوا ينظرون الى الجثة:

ـ أيها الغلمان ، ساعدونى على حمله ووضعه فى عربتى، وجيئونى بفأس

وجرى أحدهم ليأتي بفأس ، وأعان الآخران جورج على حمـــل الجثة الى العربة

أما جورج فلم يكلم لجرى ولم ينظر اليه ، ولم يعترض هـذا على أوامره ، بل وقف يصفر متكلفا عدم المبالاة ثم تبعهم فى عبوس الى موقف العربة بالباب

ونشر جورج معطفه فى العربة ، ووضع الجثة فيه بعناية ، بعد أن نقل المقعد ليفسح لها مكانا ثم تلفت وحدق بعينيه فى لجرى قائلا وهو يتكلف الهدوء

ـ اننى لم أقل لك حتى الآن رأيى فى هذا الحادث الفظيع ·فليس هذا وقته ولا مكانه · ولكنى أقول لك يا سيدى انى سأنتصف لهذا الدم البرىء · سأبلغ عن جناية القتل هذه ، وسأمضى الى أقرب ضابط قضائى وأفضحك ·

وقال لجرى وهو يطق أصبعيه فى ازدراء

ـ افعل ! أود أن أراك تفعل فمن أين لك الشــــهود ؟ ـ وكيف تثبت دعواك ؟ ـ قل لى !

وفطن جورج لتوه الى مافى هذا التحدى من وجاهة ·ذلك أن البيت لم يكن فيه شخص أبيض ، أما شهادة الملونين فلا وزن لها فى جميع محاكم الجنوب ! وأحس فى تلك اللحظة كأنه يود أن يشق السموات بصرخة قلبه الساخطة طلبا للانصاف ، ولكن لم يكن هناك جدوى من هذا ·

وقال لجرى

ـ على أى حال ، انها زوبعة من أجل زنجى ميت

وكأن الكلمة شرارة أوقدت فى مخزن بارود · ولم يكن الحذر يوما فضيلة أصيلة فى الفتى الكنتكى · وتلفت جورج ، وبضربة حانقـة واحدة صرع لجرى أرضا فانبطح على وجهه ، وكأن جورج وهو واقف

فوق غريمه يتلظى غضبا وتحديا صورة لا بأس بها لسـميه العظيم منتصرا على التنين •

على أن بعض الناس يفيدون من الضرب افادة لا ريب فيها فإذا صرعهم انسان وأذاقهم التراب احترموه لتوهم ، وكان لجرى واحدا من هؤلاء • لذلك فانه حين نهض ونفض عن ثيابه الغبار نظر باحترام ظاهر الى العربة العائدة أدراجها فى بطء ، ولم يفتح فمه حتى توارت عن النظر •

وكان جورج قد لحظ وراء حدود المزرعة رابية رملية جافة يظللهـا بعض الشجر ، وهناك مهد الرجال قبرا لتوم

وقال الزنوج حين أعد القبر

ــ أننزع عنه المعطف يا سيد ؟

ــ لا ، لا ــ ادفنوه معه ــ انه كل ما أستطيع أن أمنحك أيهـا المسكين توم ، وهو لك •

ووسدوه لحده ، وأهال عليه الرجال الرمال صامتين ، وكوموهامن فوقه ، ووضعوا عليه عشبا أخضر

وقال جورج وهو يدس قطعة نقود فى يد كل منهم

ــ فى وسعكم أن تنصرفوا أيها الغلمان

ولكنهم تباطأوا

وقال أحدهم

ــ لو تفضل السيد الصغير فاشترانا

وقال الآخر

ــ اذن لخدمناه أصدق خدمة !

وقال الأول

ــ ان الأحوال هنا عصيبة يا سيدى ! فهلا تفضلت بشرائنا !

وقال جورج فى مشقة وهو يصرفهم

ــ لا أستطيع ! لا أستطيع ! هذا محال !

وابتأس المساكين ومضوا صامتين •

وقال جورج وهو يجثو على قبر صاحبه المسكين

ــ ألا فاشهد أيها الاله الأزلى ! ألا فاشهد أننى منذ الساعة فاعل ما يسع انسانا واحدا أن يفعله لمحو لعنة الرق من بلادى !

أما المثوى الأخير الذى ضم رفات صاحبنا فلم يرفع فوقه شاهد يدل عليه • ولكنه فى غنى عن أى شاهد ، فان ربه عليم بمثواه ، وسيبعثه من مرقده ،

فلا تأسوا عليه ولا ترثوا لحاله ! فما خلقت مثل هذه الحياة والموت للأسى والرثاء •

الفصل الثاني والاربعون

قصة شبح صحيحة

فشت أساطير الأشباح بدرجة غير عادية بين خدم لجرى في الفترة التي نحن بصددها لسبب عجيب .

ذلك أنهم تهامسوا بأن خطى سمعت في جوف الليل تهبط سلم حجرة السطح وتجوب البيت . وعبثا كان القوم يغلقون أبواب المدخل الأعلى ، فقد قيل ان العفريت كان يحمل نسخة من المفتاح في جيبه ، أو لعله كان يتمتع بما تتمتع به العفاريت منذ عهود سحيقة من امتياز المروق من ثقب الباب ، ثم يجول كما كان يجول من قبل بحرية تنخلع لها القلوب .

واختلف الثقات بعض الاختلاف في مظهر العفريت بسبب عادة شائعة بين الزنوج ــ ولعلها شائعة بين البيض أيضا ــ وتلك هي أنهم بلا استثناء يغمضون عيونهم ويغطون رءوسهم بالبطاطين أو التنانير أو أي شيء في متناول اليد أن تتقى به في هذه المناسبات .

واذا أبطل عمل العيون المبصرة على هذا النحو بطبيعة الحال ، نشطت عيون الروح نشاطا حادا كما هو معروف ، وعلى ذلك كثرت الصور المفصلة التي وصفها الواصفون للعفريت وأقسموا على صحتها بكل محرجة من الايمان ، وهي صور كانت ــ كما هي الحال في الصور جميعها ــ لا يتفق بعضها مع بعض الا في خصيصة عائلية يتسم بها معشر العفاريت ــ وهي ارتداء ملاءة بيضاء . ولم يكن هؤلاء المساكين متفقهين في التاريخ القديم ، ولم يعلموا أن شيكسبير قد أضفى الحجية على هذا الزى بقوله ان « الموتى في ملاءاتهم كانوا يزعقون ويرطنون في شوارع روما . » وعلى ذلك فان اتفاقهم جميعا

على هذه النقطة هو حقيقة تلفت النظر فى علـــم الأرواح ، واليها نحيل وسطاء الأرواح كافة .

وأيا كان الأمر ، فان عندنا من الأسباب الخاصة ما يؤكد لنا أن شبحا طويلا مدثرا بملاءة بيضاء كان يمشى فعلا حول بيت لجرى فى أنسب الساعات لمشى العفاريت ـ فكان يمر بالأبواب ، ويتسلل خول البيت ـ ويختفى فترات ، ويظهر من جديد ، ثم يصعد السلم متجها الى حجرة السطح الرهيبة ، وأن أبواب المدخل كلها كانت توجد فى الصباح مغلقة بمفاتيحها كالعهد بها

ولم يستطع لجرى أن يتقى سماع هذا الهمس برغمه ، وكان أشد اثارة له لما بذل الهامسون من جهد فى كتمانه عنه . وراح يشرب من البرندى فوق ما اعتاد أن يشرب ، ويرفع فى النهار رأسه بخفـــة ويسب بصوت أعلى مما اعتاد أن يسب . ولكنه كان يحـلم أحـلاما مزعجة ، وكانت رؤى رأسه على فراشه لا تسر . وفى الليلة التالية لدفن توم ركب الى المدينة المجاورة ليشرب ويقصف ، فشرب وقصف ما طاب له ، ووصل بيته متأخرا متعبا ، وأغلق بابه ، وأخذ مفتاحه ، ومضى الى فراشه .

ولكن مهما جهد انسان فى اخماد صوت النفس ، فان هذه النفس التى يملكها الانسان شىء مشاغب قلق رهيب فمنذا الذى يعرف حدود هذه النفس وتخومها ؟ ومنذا الذى يعرف شكوكها وهواجسها المخيفة ـ ارتجافاتها وارتعاداتها التى لا تستطيع أن تمحو فى الحياة ذكراها أكثر من استطاعتها البقاء بعد أبديتها هى ! ما أشد حمـاقة ذلك الانسان الذى يغلق بابه اتقاء الأرواح ، وبين جنبيـــه روح لا يجرؤ على لقائها وحيدا ـ والذى لم يزل صوته الذى خنقه ، وداس عليه ، وكوم من فوقه جبالا من المادية ، يدوى نذيره دوى بوق يـوم الحساب !

ولكن لجرى أغلق بابه وأسند وراءه كرسيا ، وعلق مصـــباحا ساهرا عند قمة سريره ، ووضع مسدسيه فى فراشـــه ثم فحص

خطاطيف النوافذ وأربطتها ، وأقسم أنه « لا يهمنه بعد ذلك الشيطان وكل زبانيته » ثم ذهب لينام

ولقد نام ، لأنه كان متعبا ــ ونام نوما عميقا · ولكن في النهــاية كدر منامه طيف ، ورعب ، وخشية من شيء رهيب يحوم فــوفه وخيل اليه أن هذا ليس الا كفن أمه ، ولكن الكفن كانت تمسك به كاسي وترفعه وتريه اياه ولقد سمع من قبل ضوضاء اختلط فيها الصراخ بالأنين ، وأدرك وسط هذا كله أنه نائم ، فتاضل ليستيقظ وأفاق نصف افاقة · ولكنه كان واثقا أن شيئا يدخل حجرته · وعلم أن الباب ينفتح ، ولكنه عجز عن أن يحرك يدا أو قدما · وأخيرا تلفت مفزوعا ، فاذا الباب مفتوح ، واذا يد تطفيء مصباحه ·

وكانت الليلة قمرية مضببة غائمة ، ها هو ذا قد رآه ! شيءأبيض ينساب داخل الحجرة ! وسمع الخفيف الصامت الذى أحدثه ثــوب الشبح · ووقف الشبح ساكنا الى جوار فراشه ، ولمست يد باردة يده ، وقال صوت ثلاث مرات في همس رهيب خافت « تعال ! تعال ! تعال ! » وبينما كان راقدا والعرق يتصبب منه رعبا وفرقا ،انصرف ذلك الشيء وهو لا يدرى متى ولا كيف · فقفز من فراشه وجذباليه الباب ، فاذا هو مغلق بالمفتاح ، فسقط الرجل فقد الرشد

بعد هذا غدا لجرى أشد ادمانا للشراب منه في أى وقت مضى ولم يعد يشرب في حذر وحكمة ، بل في تهور واستهتار

وسرت الشائعات في الناحية عقب هذا بأنه مريض يحتضر · فقد كانت نتيجة الاسراف والافراط أن حل به ذلك المرض المخيف الذى يرد ، فيما يبدو ، أطياف العقاب الآتى وظلاله الرهيبة ويعكسهـــا في الحياة الحاضرة · ولم يقو أحد على احتمال أهوال حجرة المريض حين كان يهذى ويصرخ ، ويتحدث عن مشاهد يكاد يجمد لها الدم في عروق السامعين ، ووقف على فراش موته شبح صارم أبيض عنيـــد يقول :

ــ تعال ! تعال ! تعال !

وحدث باتفاق عجيب فى ذات الليلة التى ظهرت فيها هذه الرؤيا للجرى أن وجد باب البيت مفتوحا في الصباح ، وكان بعض الزنوج قد رأى شبحين أبيضين ينسابان هابطين الطريق المشجر متجهين الى الطريق الرئيسى

كانت الشمس قد قاربت الشروق حين وقفت كاسى وايملين لحظة بحرج من الشجر صغير قرب المدينة ٠

وكانت كاسى متشحة كلها بالسواد ،وهو زى السيدات الاسبانيات الكريوليات ، وقد أخفت وجهها تحت قبعة سوداء صغيرة يغطيها قناع ثقيل الوشى وكانت الخطة المتفق عليها في هروبهما أن تتنكر هى فى زى سيدة كريولية وايميلين فى زى خادمتها ٠

ولما كانت تربية كاسى فى حياتها الباكرة قد أتاحت لها الاتصال بأرقى الأوساط ، فان لغتها ، وحركاتها ، وهيئتها ، كل أولئك كان ينسجم مع هذه الخطة ٠ وكانت لا تزال تحتفظ من بين ثياب الماضى الفاخرة ومجموعات الجواهر بما يكفى لاعانتها على أداء دورها الجديد باتقان بالغ

ووقفت بأطراف المدينة حيث كانت قد لحظت صناديق للملابس معروضة للبيع ، واشترت منها صندوقا جميلا ، ورجت البائع أن يرسله مع غلامه برفقتها ومن ثم فقد ظهرت فى فندق المدينة الصغير كأنها سيدة جليلة القدر يصحبها غلام يدفع صندوق ملابسها على عجلة ، ومن خلفها ايملين تحمل حقيبتها القماشية وشتى الحزم

وكان أول من استرعى انتباهها عقب وصولها جورج شلبى الذى كان يقيم فى الفندق انتظارا لوصول الزورق التالى ٠

وكانت كاسى قد لحظت الفتى من فرجتها فى حجرة السطح ، ورأته يحمل جثة توم ، وشهدت في نشوة صامتة لقاءة مع لجرى بعد ذلك علمت من حديث الزنوج الذى ترامى الى أذنيها ، وهى تتبلل في ثياب الشبح بعد هبوط الظلام ، من هو ، وماذا كانت

صلته بتوم ٠ لذلك شعرت لتوها بمزيد من الثقـــة حين علمت أنه ينتظر مثلها وصول الزورق التالى

وكان فى هيئة كاسى وطبعها وطريقة حديثها وسـخائها الواضح فى الانفاق ما يمنع أى ميل فى الفندق للارتياب فى أمرها والناس لا يدققون قط فى استقصاء أحوال الأشخاص الذين لا غبـــار على تصرفهم فى الناحية الجوهرية — ألا وهى السخاء فى الدفع — وهى ناحية أدركتها كاسى سلفا حين زودت نفسها بالمال

ولما أقبل المساء سمع صوت زورق قادم ، وأعان جـورج شلبى كاسى على الصعود اليه فى أدب طبع عليه كل كنتكى ، وبذل جهده ليحصل لها على حجرة نوم خاصة حسنة ٠

ولزمت كاسى حجرتها وفراشها بحجة المرض طوال سـفرهم على النهر الأحمر ، وكانت تابعتها تقوم على خدمتها فى تفان وخضوع

فلما بلغوا نهر المسسبى ، وعلم جورج أن السيدة الغريبة تزمع السفر شمالا مثله ، عرض عليها أن يأخذ لها حجرة على الزورق الذى سيستقله — وهو لطيبته مشفق على ضعفها تواق الى بذل ما وسعه لمعونتها

وها هى ذى الجماعة كلها قد انتقلت سالمة الى البـاخرة الميمونة « سنسناتى » آلتى راحت تطوى النهر صعدا مدفوعة بقوة بخـارية كبيرة

وتحسنت صحة كاسى ، فجلست على حاجز البـاخرة ، وحضرت المائدة ، ونظر ركاب الزورق اليها نظرتهم الى سيدة لابد كانت على جانب كبير من الجمال

ومنذ اللحظة التى وقعت فيها عين جورج عليها لأول وهلة حيره ضرب من ضروب الشبه المبهم العابر الذى يكاد كل انسـان يتذكره ويحار منه بين الحين والحين ولم يستطع أن يتحاشى النظر اليهـا ومراقبتها مراقبة متصلة ٠ وكانت لا تفتأ ، وهى على المائدة حينا أو جالسة حينا على باب حجرتها ، تلتقى عيناها بعينى هذا الشاب وقد

ثبتهما عليها ثم ردهما فى أدب حين بان على وجههـا أنها شاعرة بمراقبته

وأحست كاسى بعدم الارتياح ، وبدأت تظن أنه ارتاب فى شىء ، وأخيرا اعتزمت أن تلجأ الى مروءته ، وأفضت اليه بقصتها كلها

وكان جورج شديد الميل الى أن يعطف على كل هارب من مزرعة لجرى ـ ذلك المكان الذى لا يكاد يطيق ذكره أو الحديث عنه ٠وأكد لها ، بما هو معهود فى سنه وحاله من استخفاف جرىء بالعواقب ، بأنه سيبذل قصاراه ليحميهما ويوصلهما سالمتين

وكانت تشغل الحجرة الملاصـقة لحجرة كاسى سيدة فرنسـية تدعى دتو ، تصحبها ابنة جميلة تناهز الاثنى عشر ربيعا ٠

وبدت على هذه السيدة الرغبة الواضحة فى التعرف الى جورج حين علمت من حـديثه أنه من أهل كنتكى ، وعززت هـذه الرغبة محاولات ابنتها الصغيرة للفت نظره ، وكانت الصبية أجمـل لعبة يمكن أن يروح بها مسافر عن نفسه من عناء رحلة أسـبوعين فى زورق بخارى ٠

وكثيرا ما كان جورج يضع كرسيه بباب حجرتها ، واسـتطاعت كاسى أن تسمع حديثهما وهى جالسة على حاجز الباخرة

كانت مدام دتو مدققة غاية التدقيق فى أسئلتها عن كنتكى حيث قضت شطرا من حياتها الباكرة على حد قولها وأدهش جـورج أن يكتشف أن مسكنها القديم لابد مجاور لمنزلهم ٠ وقد أظهرت أسئلتها علما مدهشا بالناس والأشياء فى تلك الناحية ٠

وقالت له مدام دتو ذات يوم

ـ ألك علم برجل فى ناحيتكم يدعى هاريس ؟

قال جورج

ـ ان شيخا بهذا الاسم يعيش غير بعيد من بيت أبى ولكن لم يكن لنا به اتصال كبير على أى حال

وقالت مدام دتو بلهجة نمت عن اهتمام أكثر مما أرادت أن تبدى:

ــ أعتقد أنه من كبار أصحاب العبيد •

وقال جورج وقد أدهشته لهجتها بعض الشيء

ــ أجل

ــ أسمعت أنه كان يملك ــ سمعت أنه كان يملك ــ غلاما مولدا يدعى جورج ؟

ــ أجل ــ جورج هاريس ــ انى أعرفه جد المعرفة ، فقد تزوج خادمة لأختي ، ولكنه هرب الآن الى كندا

وقالت مدام دتو في سرعة

ــ هل هرب ؟ شكرا لله !

وبدا على جورج تساؤل المدهوش ، ولكنه لم يقل شيئا

وأسندت مدام دتو رأسها على يدها وانخرطت فى البكاء قائلة

ــ انه أخى

وقال جورج في نبرة يشوبها العجب الشديد

ــ سيدتى !

وأجابت مدام دتو وهى ترفع رأسها فى كبرياء وتمسح دموعها

ــ أجل يامستر شلبي ، أن جورج هاريس أخى !

وقال جورج وهو يدفع كرسيه الى الخلف خطـــوة أو خطـوتين ويتأمل مدام دتو

ــ انى لفى شدة العجب •

فقالت

ــ لقد باعونى للجنوب يوم كان صبيا واشترانى رجـل كريم طيب فأخذنى معه الى جزر الهند الغربية ، وأعتقني ثم تزوجنى

ولم يمت الا منذ عهد قريب ، وكنت ذاهبة الى كنتكى لأرى هـــل أستطيع العثور على أخى واقتداءه

قال جورج

ـ لقد سمعته يتحدث عن أخت له تدعي املى بيعت فى الجنوب

وقالت مدام دتو

ـ حقا ! أنا هى الأخت . قل لى أى فتى ـ

قال جورج

ـ انه فتى رائع على الرغم من لعنة الرق التى ابتلى بها لقد كان صاحب شخصية ممتازة سواء من حيث الذكاء أو المبادىء

ثم واصل حديثه قائلا

ـ أنا أعرف عنه هذا لأنه تزوج فتاة فى بيتنا

وسألته مدام دتو متلهفة

ـ وأى فتاة هي ؟

قال جورج

ـ انها جوهرة هى فتاة لطيفة ذكية جميلة ، شديدة التقوى وقد ربتها أمى وعلمتها بعناية كأنها ابنتها . فأتقنت القراءة والكتابة، والتطريز والخياطة ، وكانت مرتلة رخيمة الصوت

وسألته مدام دتو

ـ هل ولدت في بيتكم ؟

قال :

ـ لا فقد اشتراها أبى فى رحلة من رحـلاته الى نيو أورلينز ، وجلبها هدية لأمى وكانت الفتاة تناهز اذ ذاك الثامنة او التاسعة من عمرها وأبى والدى أن يخبر أمى بمـا دفعه ثمنا لها ، ولـكنا

عثرنا منذ عهد قريب ونحن نفحص أوراقه القديمة على وثيقة بيعها .
واتضح لنا أنه دفع فيها ثمنا باهظا ما في ذلك شك ـ ولعل السبب هو جمالها الرائع .

وكان جورج يجلس وظهره الى كاسى، ولم ير ما ارتسم على محياها من اهتمام بالغ وهو يروى هذه التفاصيل .

ولما بلغ هذه النقطة من قصته لمست ذراعه وسألته وقد غاض الدم من وجهها لفرط اهتمامها

ـ أتعرف اسم الأسرة التى اشتراها منها ؟

ـ أظن أن المسئول عن الصفقة كان رجلا يدعى سيمونز على اى حال أعتقد أن هذا هو الاسم المدون فى وثيقة البيع !

وقالت كاسى

ـ رباه !

ثم سقطت فاقدة الرشد على أرض قمرة المركب

وهنا تنبه جورج ، وكذلك تنبهت مدام دتو . ومع أن أحدا منهم لم يستطع أن يحزر السر فى اغماء كاسى ، فانهما أحدثا كل ما يناسب مثل هذه الحالات من ضجيج ـ فقلب جورج ابريقا بلغسيل وكسر قدحين لفرط اهتمامه بنجدتها ، وازدحم نفيف من السيدات بباب القمرة حين سمعن أن سيدة قد أغمى عليها ومنعن كل مايستطعن منه من الهواء . وهكذا قام الجميع بما ينتظر أن يقوموا به فى هذه المناسبة

أما كاسى المسكينة فانها حين أفاقت حولت وجهها الى الحائط وراحت تبكى وتنتحب كالطفل ـ ولعلك أيتها الأم تستطيعين أن تقولى لنا فيم كانت تفكر ! ولعلك لا تستطيعين ، ولكنها أحست فى تلك الساعة بأنها واثقة من أن الله قد ترفق بها ورحمها ، وأنها سترى ابنتها ، كما رأتها فعلا بعد ذلك بشهور ، حين ـ ولكننا نسبق الأحداث .

الفصل الثالث والاربعون

النتائج

لقد قاربت قصتنا خاتمتها فأما جورج شلبي فقد اهتم بأن يرسل الى كاسى وثيقة بيع اليزا ، بعد أن أثارت اهتمامه غرابة الحدث ومشاعر الانسانية كما تثير اهتمام أى شباب آخر وقد وافق تاريخ الوثيقة والاسم المدون فيها معلوماتها عن الحقائق ولم يترك عندها مجالا للشك في شخصية ابنتها ولم يبق أمامها الآن غير اقتفاء آثار اللاجئين

وأما مدام دتو وكاسى فقد قصدتا من فورهما كندا بعد أن جمعهما اتفاق حظيهما الغريب ، وبدأتا رحلة تحر واستقصاء بين المراكز التي أنزل فيها الآبقون فوجدتا في أمهرستبرج المرسل الذى التجأ اليه جورج واليزا أول بلوغهما كندا واستطاعتا بمعاونته أن يتتبعا الأسرة الى مونتريال

وكان جورج واليزا قد أنفقا خمس سنوات منذ تحررهما • ووجد جورج عملا دائما في دكان ميكانيكي فاضل كسب منه قوتا كافيا لأسرته التي أضيف الى أفرادها الآن ابنة

وأما هرى الصغير ، وكان غلاما ذكيا لامعا، فقد أرسل الىمدرسة حسنة وكان يتقدم في دراسته حثيثا

واهتم قس أمهرستبرج الفاضل ــ الذى كان جورج قد نزل بمركزه أول ما نزل ــ ببيانات مدام دتو وكاسى اهتماما حمله على النزول على رجاء مدام دتو في أن يصحبهما في بحثهما حتىمونتريال على أن تتكفل هى بجميع نفقات الرحلة •

وينتقل المشهد الآن الى مسكن أنيق صغير في أرباض مونتريال ،

والوقت مساء • وفي الموقد تتأجج نار ساطعة ، ويقوم في الحجرة خوان شاى يغطيه مفرش أبيض كالثلج أعد لوجبة العشاء وفى ركن من أركان الحجرة منضدة يكسوها قماش أخضر وعليها كتاب مفتوح وأقلام وورق ورف من الكتب المختارة

كانت هذه هي الحجرة التى اختارها جورج مكتبا له ذلك أن غيرة التعلم التى حفزته من قبل الى أن يتلقى خلسة فنون القراءة والكتابة التى كان يتلهف على تعلمها وسط متاعب حياته الباكرة ومثبطاتها ، هذه الغيرة نفسها ما فتئت تحفزه الى تكريس فراغه كله لتثقيف عقله

ونحن نراه الآن جالسا الى المكتب يدون مذكرات من مجلد من « مكتبة الأسرة » كان يقرؤه •

وتقول أليزا

ــ تعال ياجورج ، لقد كنت خارج البيت طول النهار فضع هذا الكتاب ودعنا نتكلم وأنا أعد الشاى ــ هلا فعلت

وتعزز الطفلة اليزا محاولة أمها فتدلف الى أبيها ، وتحاول أن تجذب الكتاب من يده وتجلس على ركبته بديلا عنه

ويقول جورج مستسلما كما يجب أن يستسلم الرجل فى ظروف كهذه

ــ أيتها الساحرة الصغيرة !

وتقول اليزا وهى تشرع فى تقطيع رغيف من الخبز

ــ هذا حسن

وهى تبدو أكبر قليلا مما عرفناها ، وجسمها أكثر امتلاء ، ومظهرها قد ازداد رزانة ووقارا ، ولكن من الواضح أنها أسعد وأشد ما تبغى امرأة رضاء

ويقول جورج وهو يضع يده على رأس ولده :

ـ هارى ، ماذا صنعت بمسألة الحساب تلك ياولدى اليوم ؟

ويبدو هارى وقد فقد خصل شعره الطويلة ، ولكنه لا يستطيع قط أن يفقد هذه العيون والأهداب ، وهذا الجبين الجرىء الجميل الذى يزهو انتصارا وهو يجيب

ـ لقد حللتها ، حللت كل جزء فيها ، بنفسى يا أبى ، ولم يساعدنى أحد !

ويقول أبوه

ـ هذا حسن ، اعتمد على نفسك يا بنى ان أمامك من الفرص خيرا مما أتيح لأبيك المسكين ٠

فى هذه اللحظة يدق الباب ، وتمضى اليزا وتفتحه ٠ ويبادر زوجها اليها حين يسمع صيحتها المبتهجة

ـ عجبا ! أهذا أنت !

ويرحبان كلاهما بالقس الطيب وتدخل مع القس امرأتان ، وترجوهما اليزا فى الجلوس

واذا توخينا الصدق قلنا ان القس الأمين كان قد أعد برنامجا صغيرا تسير طبقا له هذه القضية ، وفى الطريق راحوا كلهم يحث بعضهم بعضا فى حذر وحيطة شديدين على ألا يبوح أحدهم بالسر الا وفقا للترتيب الموضوع

لذلك ما كان أشد دهشة الرجل الطيب ، وهو لم يكد يشير الى السيدتين بالجلوس ويخرج منديله ليمسح به فمه تمهيدا لمقدمة حديثه ، حين قلبت مدام دتو الخطة كلها رأسا على عقب بتطويقها عنق جورج بذراعيها والبوح بالسر كله مرة واحدة اذ قالت

ـ أوه ياجورج ! ألا تعرفنى ؟ أنا أختك املى

أما كاسى فكانت قد جلست متماسكة ، وكان من الجائز أن تؤدى دورها أداء متقنا لولا أن بوغتت بظهور الطفلة اليزا أمامها

وقد تقمصت صـــورة ابنتها آخر مرة رأتها ، وتقمصت شـــكلها بحذافيره ، وكل تقاطيع جسمها وتجاعيد شعرها وتطلعت الطفلة الصغيرة الى وجهها ، ورفعتها كاسى بين ذراعيها ، وضمتها الى صدرها وهى تقول ما كانت تؤمن به حقيقة فى تلك اللحظة

ـ أنا أمك ياحبيبتى

والواقع أنه كان من العسير تمثيل القصة بانضبط فى ترتيبهـــا الصحيح ، ولكن القس الطيب وفق آخر الأمر الى تهدئة الجميـــع والقاء الحديث الذى قصد أن يفتتـــح به الاجراءات ، والذى بلغ من نجاحه فى القائه أن جميع المستمعين اليه انخرطوا فى البكاء حـوله بصورة جديرة بأن يرضى عنهـــا أى خطيب من القـــدامى كان أو المحدثين

وركعوا معا وصلى الرجل الطيب ـ فأن من المشاعر ما يشتد هياجه وصخبه فلا يجد راحة آلا اذا سكب فى صدر المحبة الالهية العظمى ـ ثم قامت الأسرة التى اجتمع شتاتها من جديد وعانق بعضها بعضا فى ثقة مقدسة بالله الذى جمع شملهم وأنقذهم من أخطار كهذه الأخطار، وبطرق بعيدة عن الادراك كهذه الطرق

ان يوميات المرسل بين اللاجئين الى كندا لتطوى بين دفتيها حقائق أغرب من الخيال كيف لا وبين ظهرانينا نظـــام يعصف بالأسر ويفرق أفرادها أيدى سبا كمـــا تعصف الريح بأوراق الخـريف وتذروها ؟ أن هذه الشواطىء التى يلوذ بها اللاجئون كثيرآ ما تجمع ـ كما يجمع الشاطىء الأبدى ـ فى شركة سعيدة قلوبا أنفقت السنين يبكى بعضها بعضا ظنا منه أنه فقد وشـــد ما يمس القلب تلك اللهفة التى يلقون بها كل وافد جديد اذا اتفق أنه حمـل اليهم نبأ عن أم أو أخت أو زوجة أو طفل لم يزل تائهـــا عن البصر فى ظلال الرق

ومن أعمال البطولة التى يقوم بها اللاجئون هنا ما يفوق خيـال الروائيين ، فترى اللاجىء يشق طريقه قافلا الى أهوال تلك الأرض المظلمة ومخاطرها ، متحديا التعذيب ، مواجها الموت ذاته ، لينقـذ

أخته أو أمه أو زوجه .

من ذلك أن شابا قص علينا مرسل قصته ، وفق فى الفرار من جديد بعد أن قبض عليه مرتين واحتمل هوان الجلد جزاء بطولته وقد أخبر أصحابه فى خطاب قرىء علينا أنه عائد للمرة الثلاثة لينقذ أخته أخيرا فهل هذا الرجل ياسيدى الفاضل بطل أو مجرم ؟ أفلا تفعل لانقاذ أختك ما فعل ؟ وهل تستطيع أن تلومه ؟

ولكن لنعد الى أصحابنا الذين تركناهم يمسحون عيونهم ويفيقون من فرحة فجائية غامرة انهم الآن جالسون حول مائدة الأسرة ، وقد بدأوا يأتنس بعضهم ببعض بصورة واضحة لا ريب فيها غير أن كاسى التى تحتفظ بالطفلة اليزا على حجرها راحت تعصرها بين الجين والحين بطريقة تدهشها قليلا ، وترفض فى اصرار أن تحشو لها الطفلة فمها بالكعك الى الحد الذى تريده الصغيرة ـ زاعمة زعما عجبت له الطفلة بعض العجب ، وهو أن عندها ما هو أحلى من الكعك ، وأنها ليست فى حاجة الى كعكها

والحق أن تغيرا طرأ على كاسى فى يومين أو ثلاثة أيام بحيث لا يكاد قراؤنا يعرفونها فقد انجاب ما ارتسم على وجهها من يأس وشرود وحلت محله الثقة الرقيقة الوادعة . وبدا أنها غرقت لتوها فى حضن الأسرة ، وأسكنت الطفلين قلبها كأن هذا ما كان يترقبه منذ أمد بعيد والحق أن محبتها بدت تفيض نحو الطفلة اليزا بصورة أيسر من فيضها نحو ابنتها ، لأن الصغيرة كانت فى صورتها وجسمها هى بعينها طفلتها التى فقدتها قديما لقد كانت الصغيرة رباطا مزدهرا بين الأم وابنتها نمت عن طريقه صحبتهما ومحبتهما وغدت اليزا بفضل تقواها الثابتة الراسخة التى نظمتها قراءتها المتصلة للكلمة المقدسة ، مرشدا صالحا لعقل أمها المكدود المحطم واستسلمت كاسى من فورها ، وبنفسها كلها ، لكل تأثير طيب ، فأصبحت مؤمنة وديعة تقية .

وبعد يوم أو يومين أفضت مدام دتو الى أخيها بتفاصيل أدق عن شئونها الخاصة . فقالت ان موت زوجها خلف لها ثروة عريضة ،

وتطوعت فى سخاء أن تقاسمها الأسرة ولما سألت جــورج عن أمثل الوجوه لمعاونته بمالها أجاب

ـ مكنينى من تحصيل العلم يا املى ، فلقد طالما كانت هــذه أمنيــة قلبى فاذا تعلمت استطعت أن أقوم بالباقى كله

وبعد التروى واعمال الفكر قر رأى الأسرة على أن تنزح كلها الى فرنسا فتبقى بها بضع سنوات وأبحرت الأسرة اليهــا مصطحبة ايملين معها

وقد استهوى جمال ايملين ضابط المركب الأول ، وما لبث بعــد وصولهم الميناء أن تزوج بها

أما جورج فقد ظل أربع سنوات يطلب العلم فى جامعة فرنسية٠ وبعد أن واصل الدرس بغيرة لا تفتر ظفر بتعليم كامل

وأخيرا حملت الاضطرابات السياســية فى فرنســا الأسرة الى إلتماس ملجأ فى هذه البلاد

وليس هناك ما يعبر عن مشـــاعر جورج وآرائه بوصفه رجــلا متعلما خير مما كتبه فى خطاب آلى صديق له

« أشعر أننى فى شىء من الحيرة بشأن مستقبل حياتى ٠ صحيح أننى أستطيع كما قلت لى أن أختلط بأوساط البيض فى هذه البلاد ، يعيننى على ذلك أن سمرتى خفيفة جدا ، وأن سمرة زوجى وأسرتى لا تكاد تدرك ربما أمكننى هذا على مضض ولكنى أصارحك بأن لا رغبة لى فيه

« ان ميولى كلها ليست مع سلالة أبى بل مع ســلالة أمى ٠ فأنا لم أكن فى عينه سوى كلب أو حصان جميل ، أما فى عين أمى المسكينة الكسيرة الفؤاد فقد كنت طفلا ٠ ومع أننى لم أرها قط بعد ذلك البيع القاسى الذى فرق بيننا الى أن ماتت ، فاننى أعلم أنها كانت تحبنى دائما حبا جما ٠ وأنا أعلم هذا بقلبى ٠ وحينما أفكر فى كل ما قاست من ألم ، وفى آلامى الماضية ، وفى أحزان زوجتى البطلة وكفاحها ، وفى أختى التى بيعت فى ســـوق الرقيق بنيو أورلينز ـ فانى وان كنت

أرجو ألا يكون قد بقي فى صدرى بقية من المشاعر غير المسيحية ، أكون معذورا ان قلت لك أن لا رغبة لى فى أن يعرفنى الناس أمريكيا أو أن أكون فردا من أفراد الشعب الامريكى

« انما حظى ونصيبى بين الجنس الافريقى المستعبد المظلوم ،واذا كان لى أمنية ما فهى أن تزداد سمرتى درجتين عن أن تخف درجة . »

أما شخوص قصتنا الباقون فليس لدينا عنهم شيء يستحق الذكر، اللهم الا كلمة عن المس أوفيليا وتوبسى ، وفصل وداعى نفرده لجورج شلبى

اصطحبت أوفيليا توبسى الى بيتها فى فرمونت ، مما أدهش هذا المجتمع الرزين الجاد الذى يطلق عليه المواطنون فى نيوانجلند لفظ « جماعتنا » وظنت « جماعتنا » لأول وهلة أن توبسى اضافة غريبة لا لزوم لها ببيتهم المهذب ، ولكن بلغ من كفاية أوفيليا فى جهودها الصادقة لأداء واجبها نحو تلميذتها أن الفتاة سرعان ما نمت فى النعمة وحصلت على رضى الأسرة والجيران وحين بلغت مبلغ النساء عمدت بناء على رغبتها ، وأصبحت عضوا فى الكنيسة المسيحية بالمدينة ، وقد أبدت من الذكاء والنشاط والغيرة والرغبة فى عمل الخير للناس جميعا ما جعلها آخر الأمر تزكى لعمل التبشير ويعتمد تعيينها بأحد المراكز فى افريقيا ، ونمى الينا أن النشاط والذكاء اللذين جعلاها فى طفولتها قلقة النمو متقلبته تستخدمهما اليوم استخداما أسلم وأصح فى تعليم أطفال وطنها .

حاشية ـ سيكون من دواعى رضى بعض الأمهات أن نذكر أيضا أن بعض التحريات التى أجرتها مدام دتو أسفرت أخيرا عن اكتشاف ابن كاسى . واذ كان فتى ذا همة ، فقد هرب قبل أمه بسنوات ، واستقبله بعض أصدقاء العبيد المظلومين فى الشمال وقاموا بتعليمه .

الفصل الرابع والاربعون

محرر العبيد

كتب جورج شلبى لأمه سطرا لا أكثر ينبئها فيه باليـــوم الذى ينتظر فيه أن يعود أما مشهد وفاة صديقه القديم فلم يطاوعه قلبه على ذكره • ولقد حاول ذلك غير مرة ، ولكنه كان فى كل مرة يغص بالبكاء المكتوم ، وينتهى به الأمر الى تمزيق الورقة ، ثم يمســـح دموعه ويندفع الى أى مكان ليهدىء نفسه •

وكان بيت شلبى كله مسرحا لضجيج السرور والبهجة ذلك اليوم انتظارا لوصول الفتى جورج •

وكانت مسز شلبى جالســـة فى حجرة الجلوس المريحـة ، وقد طردت نار خشب الجوز الساطعة برودة مساء الخريف المتـــأخر ومدت مائدة العشاء تتلألأ فيها الأطباق وأكواب البللور وكانت تشرف على ترتيبها صاحبتنا القديمة ، الكهلة كلو

وأطالت كلو مكثها فى الحجرة ، وهى فى ثوب جديد من البفتة ، وميدعة بيضاء ، وعمامة منشــــاة عالية ، وقد لمع وجهها الأســود ابراق رضى واغتبـــاطا ، وهى تبدى من التدقيق ما لا داعى له ، متعللة باشرافها على الترتيبات للتحدث قليلا الى سيدتها •

قالت

ـ حقا ! ألا يبدو هذا طبيعيا بالنسبة له ؟ هأنذا وضعت صحنه فى الموضع الذى يحبه ـ بجانب المدفأة ان ســـيدى جورج يحب المقعد الدافىء دائما • ما هذا ! ـ لم لم تخرج سالى أجمـــل ابريق للشاى عندنا ـ الابريق الجديد الصغير الذى أحضره سيدى جورج لعيد ميلاد سيدتى ؟ سأخرجه أنا !

ثم قالت متسائلة

ـ وهل وصلت سيدتى أنباء من سيدى جورج ؟

ـ نعم ياكلو ، ولكنه لم يبعث بغير سطر واحد يقول فيه انه سيعود الليلة اذا استطاع ـ هذا كل ما كتب ٠

قالت كلو وهى لا تزال تعبث بأقداح الشاى فى قلق

ـ لعله لم يذكر شيئا عن زوجى

ـ لا ، لم يذكر شيئا ٠ انه لم يكتب عن أى شىء يا كلو ٠ قال انه سيخبرنا بكل شىء حين يعود ٠

ـ هذا دأب سيدى جورج ـ فهو يصر دائما على أن يقص كل شىء بنفسه وكنت دائما ألحظ هذا فى سيدى جورج ٠ وأنا من جهتى لا أدرى كيف يطيق البيض عموما أن يكتبوا الخطابات الطويلة التى يكتبونها مع أن الكتابة عمل بطىء متعب

وابتسمت مسز شلبى

ـ فى ظنى أن زوجى لن يعرف الأولاد والطفلة الصغيرة ٠ رباه ! ان بولى الآن أوفر البنات جميعا ـ وهى طيبة أيضا وخفيفة الحركة٠ لقد ذهبت الى البيت الآن لتراقب نضج كعكة الذرة انني خبزت النوع الذى كان يحبه زوجى كثيرا تماما كالكعك الذى قدمته له صباح اليوم الذى أخذوه فيه يرحمنا الله ! لكم كان ألمى ذلك الصباح !

وتنهدت مسز شلبى ، وأحست حملا ثقيلا على قلبها عند سماعها هذه الاشارة ٠ وكانت تشعر بعدم الاطمئنان مذ تسلمت خطاب ولدها ، وخشيت أن يكون هناك شىء يخفيه وراء ستار الصمت الذى أسدله ٠

وسألتها كلو فى لهفة

ـ هل الأوراق المالية مع سيدتى ؟

ــ نعم يا كلو .

ــ لأنني أريد أن أرى زوجي الأوراق المالية التى أعطانيها صانع الحلوى لقد قال لى الرجل ليتك تبقين مدة أطول ياكلو فقلت له شكرا ياسيدى كنت أتمنى هذا ، لولا أن زوجي عائد الى البيت، ولولا أن سيدتى لا تستغنى عنى أكثر من هـــذا . هـذا بالضبط ما قلته له كان رجلا ظريفا جدا ، هذا السيد جونز

وكانت كلو قد أصرت علىَ أن تحتفظ بالأوراق المالية التى دفعت أجرا لها لتريها لزوجهـــا تذكارا لكفايتهـــا ووافقت مسز شلبى لتوها على هذا الرجاء ارضاء لها

ــ انه لن يعرف بولى ــ نعم ، لن يعرفها زوجى ، رباه ، لقدمضت خمسة أعوام منذ أخذوه ! كانت يومها رضيعا ، لا تكاد تقوى الا على الوقوف انى لأذكر كيف كان يضحك مبتهجا لأنها كانت تتعثر كثيرا وهى تحاول المشى . رباه !

وسمعت الآن قعقعة عجلات .

وقالت العمة كلو وهى تهرع الى النافذة

ــ سيدى جورج !

وجرت مسز شلبى الى الباب فاحتضنها ولدها بين ذراعيه أما العمة كلو فوقفت تحملق فى الظلام خارجا وهى شديدة القلق

وقال جورج وقد توقف حانيا عليها آخذا بيدها السوداء الصلبة بين يديه

ــ أسفاه أيتها العمة المسكينة كلو ! كنت على استعداد لبذل مالى كله لأحضره معى ، لولا أنه مضى الى وطن أفضل

وصاحت مسز شلبى صيحة التأثر الشديد ، ولكن العمة كلو لم تقل شيئا

ودخلت الجماعة غرفة العشاء . وكانت النقود التى تعتز بها كلو

أشد اعتزاز لم تزل على المائدة

وقالت وهى تجمعها وتعطيها لسيدتها بيد مرتجفة

ـ هاك النقود لا أريد قط أن أراها أو أسمع عنها شيئا بعد اليوم لقد وقع ما كنت أحزره تماما ـ بيع وقتل فى هذه المزارع العتيقة !

وانثنت كلو خارجة من الغرفة وهى تمشى فى ابطء • وتبعتها مسز شلبى فى رفق ، وأخذت يدها ، وأجلستها على كرسى ، وجلست الى جوارها •

وقالت لها

ـ ايه يا كلو الطيبة المسكينة !

وأسندت كلو رأسها الى كتف سيدتها وأخذت تنتحب قائلة

ـ أواه يا سيدتى ! سامحينى ، ان قلبى مكسور ـ هذا كل ما فى الأمر !

وقالت مسز شلبى ودموعها تنحدر فى سرعة

ـ أعرف أنه مكسور وأنا لا أستطيع أن أجبره ، ولكن الله يستطيع أنه يجبر منكسرى القلوب ، ويضمد جراحهم

وساد السكون فترة ، وبكى الجميع معا • وأخيرا تناول جورج يد كلو الحزينة ، وكان جالسا بجوارها ، وروى فى حنان ساذج ذلك المشهد الظافر ـ مشهد موت زوجها ، وردد رسالات حبه الأخيرة •

ومضى شهر على هذه الأحداث ، وذات صباح جمع كل الخدم فى مزرعة شلبى معا فى البهو الكبير الذى يخترق البيت ليسمعوا حديثا قصيرا من سيدهم الصغير

ولشد ما كانت دهشتهم حين طلع عليهم وفى يده ربطة من الورق تحتوى شهادة عتق لكل فرد فى البيت ، وأخذ يقرأ الشهادات واحدة

تلو الأخرى ويقدمها لأصحابها بين بكاء الحاضرين جميعهم ودموعهم وصيحاتهم

على أن كثيرين منهم التفوا حوله مناشدينه ألا يُصرفهم ، وقدموا له أوراق عتقهم ثانية بوجوه قلقة متلهفة

ــ أننا لا نريد حرية أكثر مما نتمتع به هنا · لقد توافر لنا هنا على الدوام كل ما نشتهيه · ونحن لا نريد أن نترك البيت القديم ، ولا رب البيت ، ولا وبنته ، ولا الباقين !

وقال جورج حالما استطاع أن يهدئهم

ــ يا أصدقائي الطيبين ، لن يكون هناك داع يدعوكم لتركى فالمزرعة في حاجة الى عدد العمال الذين كانوا يعملون فيها من قبل· كذلك نحتاج فى البيت الى العدد الذى كنا نحتاج اليه من قبل ولكنكم الآن رجال ونساء أحرار ، وسأدفع لكم عن عملكم الأجور التى نتفق عليها وفائدة هذه الحرية لكم هى أنه فى حالة وقوعى فى الدين ، أو فى حالة موتى ــ وتلك أشياء قد تحدث ــ لن يكون فى امكان أحد أن يأخذكم عنوة ويبيعكم وأنا أرجو أن أمضى فى ادارة المزرعة ، وأن أعلمكم ما قد يقتضيكم تعلمه بعض الوقت وهو كيف تستخدمون الحقوق التى أعطيتكم اياها بوصفكم رجالا ونساء أحرارا· وانى لأرجو أن تكونوا طيبين راغبين فى التعلم ولى ثقة فى الله أن أكون أمينا راغبا فى التعليم · والآن أيها الأصدقاء ، ارفعوا رءوسكم واحمدوا الله على نعمة الحرية ·

وهنا وقف زنجى طاعن فى السن قد شاخ وفقد بصره فى المزرعة ، ورفع يده المرتجفة قائلا :

ــ فلنرفع الشكر لله !

وفيما هم جميعا راكعون بنفس واحدة للصلاة ، صعدت الى السماء من هذا القلب الهرم الأمين صلاة حمد لا تضارعها تأثيرا واخلاصا أية ترنيمة حمد وأن حملها الى السماء دوى الأرغن وقرع الأجراس وقصف المدافع

ولما قاموا من صلاتهم بدأ رجل آخر ترنيمة مثدية يقول قرارها

« لقد أقبل عام اليوبيل –

فارجعوا أيها الخطاة المعذبون الى أرض الوطن

وقال جورج مقاطعا تهانىء الجمع

– بقى شىء واحد كلكم تذكرون العم توم الكهل الطيب ؟

وهنا روى جورج فى ايجاز مشهد موته ، ووداع المحبة الذى بعث به اليهم جميعا ، ثم أضاف قائلا

– على قبر توم اعتزمت أيها الأصدقاء أمام الله الا أمتلك عبدا آخر ما دام فى استطاعتى أن أحرره ، والا أكون سببا فى تعريض أحد لخطر الفراق عن بيته وأصحابه ولخطر الموت فى مزرعة نائية كما مات فاذكروا اذا ابتهجت أفئدتكم بالحرية التى تلتموها اليوم ،أنكم مدينون بها لهذا الكهل الطيب ، وردوا صنيعه عطفا على زوجه وأبنائه تذكروا حريتكم كل مرة ترون فيها كوخ العم توم ، وليكن لكم هذا الكوخ شاهدا يذكركم بأن تنسجوا على منواله ، وأن تكونوا أمناء أوفياء مؤمنين كما كان

الفصل الخامس والاربعون

ملاحظات ختامية

كثيرا ما كتب الكاتبون في شتى أنحاء الولايات المتحدة للمؤلفة يسألونها هل هذه القصة قصة واقعية وهي مجيبة عن هذه الأسئلة فيما يلي بجواب عام واحد

ان الأحداث المنفصلة التي تؤلف القصة صحيحة الى حد كبير ، فقد وقع كثير منها اما تحت ملاحظتها واما تحت ملاحظة أصدقائها الشخصيين • وقد لحظت هي أو أصدقاؤها شخوصا شبيهة بشخوص هذه القصة كلهم أو جلهم ، وكثير من العبارات التي جرت على ألسنتهم سمعتها بنصها أو رويت لها

فمظهر اليزا والخلق الذي أضفته القصة عليها هما صورة مشتقة من صميم الحياة • ووفاء العم توم وورعه وأمانته التي لا يتطرق اليها الوهن لها على ما تعلم شخصيا أكثر من نظير واحد كذلك تجد في عالم الواقع نظائر لبعض أحداث القصة سواء منها المفجع الخيالي أو المخيف الرهيب • وحادث عبور الأم نهر الأوهايو فوق الجليد حقيقة مشهورة • وقصة « برو العجوز » حادثة مرت بأخ للكاتبة حين كان يشتغل محصلا لبيت تجاري كبير بنيو أورلينز • ومن المصدر نفسه اشتقت الكاتبة شخصية مالك الضيعة « لجرى » • فقد كتب عنه أخوها يصف زيارته لضيعته في جولة للتحصيل « لقد جعلني فعلا أحس وطأة قبضته التي أشبهت مطرقة الحداد أو كتلة الحديد ، وقال لي أنها تقست لطول ما صرعت الزنوج ! ولما بارحت الضيعة تنفست الصعداء وشعرت كأنني نجوت من كهف غول • »

أما أن لمصير توم المفجع أيضا أشباها كثيرة فحقيقة يشهد بها

كثير من الأحياء فى شتى أنحاء الولايات المتحدة • وليذكر القارىء أن من المبادىء القضائية المقررة فى جميع الولايات الجنوبية أن أحدا من سلالة ملونة لا يستطيع الشهادة فى دعوى ضد شخص أبيض ، ومن اليسير أن ندرك أن حالة كهذه يمكن أن تقع أينما وجد رجل طغت شهواته على مصالحه ، وعبد له من الرجولة والمبادىء ما يكفى لمقاومة ارادته والواقع أنه ليس هناك شيء يحمى حياة العبد سوى خلق سيده ويحدث بين الحين والحين أن حوادث فظيعة لا يستطيع المرء التفكير فيها تشق طريقها الى مسامع الرأى العام ،ولكن التعقيب الذى كثيرا ما يسمعه المرء عليها أفظع من الجريمة نفسها يقول البيض « من المحتمل جدا أن تقع حالات كثيرة من حين الى حين، ولكنها ليست قاعدة يقاس عليها » • ولو أن قوانين نيو انجلند نظمت تنظيما يتيح لصاحب العمل من حين الى حين أن يعذب صبيا له حتى الموت وهو فى مأمن من العقاب ، فهل يتلقى الناس الأمر بمثل هذا الهدوء ؟ وهل يقولون « ان هذه الحالات نادرة لا يقاس عليها ؟ » ان هذا الظلم طبيعة ملازمة لنظام الرق ــ فالنظام لا يمكن أن يقوم بدون الظلم

ولقد كان للأحداث التى أعقبت الاستيلاء عنوة على السفينة بيرل الفضل فى اذاعة فضائح بيع الفتيات الخلاسيات الجميلات بيعا علنيا لا حياء فيه ، ونحن نسوق الى القارىء طرفا من خطاب السيد هوراس مان ، أحد محامى المدعى عليهم فى هذه القضية قال « ان الأشخاص السبعة والستين الذين حاولوا فى سنة ١٨٤٨ أن يهربوا من مقاطعة كولمبيا على السفينة بيرل ، والذين ساعدت ضباطها فى الدفاع عنهم ، كان من بينهم عدة فتيات صغيرات السن مكتملات العافية ، لهن من مفاتن الجسد والصورة ما يقدره العارفون تقديرا كبيرا وكانت الزبث رسل احداهن وقد وقعت لتوها بين براثن تاجر الرقيق وقضى عليها بالبيع فى سوق نيو أورلينز • ورقت قلوب الذين رأوها لما حاق بها من مصير ، فعرضوا أن يفتدوها بألف وثمانمائة دولار ، وكان بين المتطوعين من لا يفضل عنه المال الكثير اذا جاد بهذا المبلغ ولكن تاجر الرقيق الرجيم كان صلبا لا تلين له قناة • فرحلت الفتاة الى نيو أورلينز ولكن الله رأف بحالها فلقيت

حتفها في منتصف الرحلة وكان بين الجماعة فتاتان تسميـــــان أمندس وفيما هما على وشك الرحيل ليباعا في السوق نفسها ذهبت أخرى كبرى إلى المجزر لتضرع إلى الشقي الذي يملكهما وتستحلفه بالله أن يدع ضحيته • وراح الرجل يمزح معها ويحدثها بما ستنعمان به من ثياب أنيقة وأثاث فاخر

فقالت « نعم ، قد يكون هذا حسننا في هذه الحياة ، ولكن ماذا سيكون مصيرهما في الآخرة ؟ » وقد حملتا هما أيضا الى نيو أورليننز ولكنهما افتديتا فيما بعد بثمن باهظ واسترجعتا » أفلا يتضح من هذا كله ان قصتي ايملين وكاسي قد يكون لهما نظائر كثيرة ؟

كذلك ترى المؤلفة أن الانصاف يقتضيها القول ان نزاهـــة سانت كلير وأريحيته ليستا مقطوعتي النظير كما تدل على ذلك النادرة التالية، وهي أن سيدا من شباب الجنوب ذهب قبل ســنوات الى سنسناتي وبصحبته خادم أثير كان يلازمه تابعا شخصيا له منذ طفـــــولته وانتهز الخادم الشاب هذه الفرصة ليتحرر من رقه ، ففر واحتمى برجل من الكويكر كان مشهورا بنشاطه في حماية العبيد الآبقين واشتد سخط السيد ، لأنه كان على الدوام يعامل عبـــده بكثير من التسامح ويثق في محبته له ثقة حملته على الاعتقاد بأنه لابد أن أحدا غرر به ليتمرد عليه فمضى الى الكويكر وهو شديد الحنق ، ولكن ما لبث أن هدأ غضبه حين سمع حجج الرجل وتصويره للأمر لأنه كان غاية في الصراحة والانصاف

فقد صور له الرجل ناحية من نواحي الموضوع لم يسمع بها قط من قبل ، ولم يفكر فيها قط ، فقال للكويكر من فوره أنه سيعتـــق العبد اذا قرر في مواجهته أنه يريد أن يتحرر ورتب اجتماع بين السيد والعبد ، فسأل السيد الشاب عبده ناثان هل عنـــده مبرر للشكوى من معاملته اياه في أية ناحية

فأجاب ناثان

ـ لا يا سيدي لقد كنت دائما رحيما بي

ـ اذن فلماذا تريد أن تتركني ؟

ـ قد يموت سيدى ، وعندئذ فمن يأخذنى بعده ـ انى أوثر أن أكون رجلا حرا ٠

وفكر السيد الشاب مليا ثم أجاب

ـ أظننى يا ناثان لو كنت مكانك لشعرت شعورك هذا اذهب فأنت حر

وحرر له من فوره وثيقة عتقه ، وأودع مبلغا من المال عند الكويكر يستخدمه بحكمة ليعين الشاب على شق طريق له فى الحياة ، وترك للشاب خطابا معقولا رقيقا غاية الرقة ضمنه نصائحه لــه وقد وصل هذا الخطاب ليد المؤلفة وبقى معها فترة من الزمن

وترجو المؤلفة أن تكون قد أنصفت العقل والسماحة والمروءة التى هى فى كثير من الحالات سمات الأفراد فى الجنوب ٠ ومثل هــذه الحالات تنقذنا من التردى فى هوة اليأس من صلاح نوعنا الانسانى ٠ ولكنها تســـأل أى شخص خبر الدنيا ، هــل هذه الشخصـيات هى الغالبة فى أى مكان

وقد ظلت المؤلفة أعواما كثيرة تتحاشى كل قراءة فى موضوع الرق أو اشارة اليه ، لأنها كانت تنظر اليه نظرتها الى شىء يثير من الألم ما لا يسمح بتناوله بحثا وتحقيقا شىء سيمحو ذكراه تقدم العلم والحضارة على مر الأيام ولكنها بعد تشريع عام ١٨٥٠ حــين سمعت فى دهشة وفزع شديدين أشخاصا مسيحيين وانســـانيين يزكون فعلا رد العبيد الآبقين الى العبودية بوصفه واجبا مفروضا على المواطنين الصالحين ، وحين سمعت فى كل مكان ، ومن قوم لطفاء رحماء محترمين فى ولايات الشمال الحرة ، مداولات ومناقشات عما تراه يكــون واجب المســـــيحى فى هذا ، أقول أن المؤلفة حــين سمعت هذا كله لم يسعها الا أن تقول فى نفسها ان هؤلاء الناس ، هؤلاء المسيحيين ، لا يمكن أن يكونوا على علم بحقيقة الرق ، والا لما طرح موضوع كهذا على بساط البحث والنقاش ٠وقد بعث هذا فيها الرغبة فى عرضه عرضا واقعيا مسرحيا حيا ، وجهدت فى أن تكــون منصفة فى عرضها ، سواء لأفضل نواحيه أو لأسوئها ولعلها قد

وفقت فى ابراز أفضل نواحيه ، ولكن وا حسرتاه ! فمنذا يستطيع اماطة اللثام عن الخبايا المجهولة فى ذلك الوادى المنبسط على الجانب الآخر ، وادى ظل الموت ؟

أما أنتم يا رجال الجنوب ويا نساء النبلاء الأكرمين — أنتم الذين تسامت فضيلتكم ونخوتكم وطهارة خلقكم على قدر شدة الامتحان الذى امتحنت به — فاليكم تتجه الكاتبة بندائها هذا ألم تشعروا فى صميم قلوبكم ، وفى أحاديثكم الخاصة ، أن فى هذا النظام اللعين من الويلات والشرور ما يفوق كثيرا ما وصف هنا أو يمكن وصفه ؟ وهل يمكن الا أن يكون الأمر كذلك ؟ وهل كان الانسان مخلوقا يمكن أن يعهد اليه بسلطان مطلق تماما لا يحاسب عليه ؟ وألا يجعل نظام الرق ، حين ينكر على العبد كل حق شرعى فى الشهادة ، من كل مالك فرد طاغية مستهترا ؟ وهل يمكن أن تخفى على أحد النتيجة العمدية لهذا الطغيان ؟ واذا كان هناك كما نسلم ، شعور عام بينكم أنتم أصحاب الشرف والانصاف والمروءة ، أفلا يكون هناك أيضا نوع آخر من الشعور العام بين الأوشاب والمتوحشين والسفلة ؟ وألا يستطيع الأوشاب والمتوحشون والسفلة ، بمقتضى قانون الرق ، أن يملكوا من العبيد العدد الكبير كما يملك الفضلاء الشرفاء ؟ وهل الشرفاء العادلون الواسعو الادراك الرحماء هم الكثرة الغالبة فى هذه الدنيا ؟

ان تجارة الرقيق تعد الآن ضربا من القرصنة بمقتضى القانون الأمريكى ولكن هناك تجارة للرقيق تلازم نظام الرق الأمريكى وتنشأ عنه لا مندوحة عنها ، تجارة لا تقل تنظيما عن أى تجارة للرقيق نشطت على ساحل افريقيا من قبل . وهل يستطيع أحد أن يحيط بما تنطوى عليه هذه التجارة من ذل وأهوال ؟

ان الكاتبة لم ترسم غير ظل باهت أو صورة خفيفة للعذاب واليأس اللذين يفطران فى هذه اللحظة آلاف القلوب ، ويحطمان آلاف الأسر ويطرحان جنسا حساسا لا حول له ولا قوة فى مهاوى الجنون والقنوط .

ومن الأحياء من يعرفون أمهات دفعتهن هذه التجارة الخاسرة الى أن يقتلن أطفالهن ثم يلتمسن فى الموت بعد ذلك ملاذا من ويلات هى أشد من الموت هولا وليس هناك من المآسى التى قد توصف كتابة أو حديثا ، أو قد تخطر بالبال ، ما يعدل الواقع الرهيب ، واقع المشاهد التى تمثل كل يوم وكل ساعة على شواطئنا فى كنف القانون الأمريكى ، وفى ظل ديننا المسيحى

أما بعد يا رجال أمريكا ويا نساءها ، فهل هذا شىء يستهان به ، ويعتذر عنه ،ويتغاضى عنه فى صمت؟ أنتم يازراع ماساشوستس، ونيو هامبشير ، وفيرمونت ، وكونكتيكت ، أنتم الذين تقرءون هذا الكتاب على نيران المدفأة الساطعة فى أمسيات الشتاء — ويا بحارة السفن وأصحابها الكرام الشجعان فى مين — أهذا شىء يليق بكم أن ترضوا عنه وتشجعوه ؟ ويا رجال نيويورك البواسل الشرفاء ، ويا زراع أوهايو المشرقة الغنية ويا زراع ولايات البرارى الشاسعة المترامية — أجيبوا أهذا شىء يليق بكم أن تحموه وترضوا عنه ؟ وأنتن يا أمهات أمريكا — أنتن اللائى تعلمتن عند مهاد أطفالكن حب البشر كلهم والعطف عليهم ، — بحق ذلك الحب المقدس الذى تحملينه لطفلك أيتها الأم بحق فرحتك بطفولته الطاهرة الجميلة ، بحق رحمة الأم وحنانها اللذين ترشدين بهما عمره النامى بحق شواغل تربيته وتعليمه ، بحق الصلوات التى تبتهلين بها لخير روحه الأبدى ، — أضرع اليك أن ترثى لأم وهبت كل مشاعر حبك وحرمت كل حق مشروع فى حماية فلذة كبدها أو ارشاده أو تعليمه ! بحق آلام مرض ولدك ، بحق هاتين العينين المحتضرتين اللتين لن تستطيعى أن تنسيهما بحق هذه الصرخات الأخيرة التى اعتصرت قلبك حين عجزت عن المعونة أو الانقاذ ، بحق وحشة ذلك المهد الخاوى ، واقفار حجرة الوليد الصامتة ، — أضرع اليك أن ترثى لهؤلاء الأمهات اللاتى لا تفتأ تجارة الرق الأمريكية تنتزع منهن أولادهن ! أجبن يا نساء أمريكا أهذا أمر يليق بكن الدفاع عنه أو المشاركة فيه بوجدانكن أو الاغضاء عنه فى صمت ؟

أتقلن ان أهل الولايات الحرة لا شأن لهم بهذا ولا يستطيعون له

دفعا ؟ ليت هذا كان حقا ! ولكنه ليس بحق . فان أهل الولايـــات الحرة قد دافعوا عنه ، وشجعوه ، وشاركوا فيه ، ووزرهم فيه أشد أمام الله من وزر الجنوبيين ، لأنهم لا يستطيعون الاعتذار بالتعليم أو حكم العادة

ولو أن الأمهات في الولايات الحرة شعرن جميعا ، في العهود الماضية كما ينبغي أن يشعرن ، لما كان أبناء الولايات الحرة ملاكا للعبيد وسادة هم مضرب المثل في الشدة والقسوة ، ولما أغضى أبناء الولايات الحرة عن انتشار الرق واتساع رقعته في بلادنا ، ولما تبادل أبناء الولايات الحرة كما يتبادلون اليوم نفوس الرجال وأجسادهم في معاملاتهم التجارية كأنها والنقود صنوان . ان من العبيد أفواجا يملكها التجار في مدن الشمال حينا ثم يبيعونها ، فهل تقع جريرة الرق أو معرته كلها على الجنوب وحده ؟

على رجال الشمال ، وأمهات الشمال ، ومسيحيي الشمال ، واجب أكثر من التشهير باخوتهم في الجنوب ، عليهم أن يتنبهوا لهذا الاثم في وسطهم

ولكن ماذا يستطيع الفرد ، أي فرد ، أن يصنع ؟ الحكم في هذا متروك لكل فرد . على أن شيئا واحدا يستطيعه الأفـــراد جميعا — ذلك أن يستوثقوا من أن شـــعورهم في جانب الحـــق . وكل انســـان يحيط به جو من النفـــوذ تمليه عليه ميوله ، والرجـــل أو المرأة ، الذي يشعر شعورا قويا سليما منصفا بازاء مصالح الانسانية الكبرى هو انسان بار أبدا بالنــــوع الانســـاني . فانظروا اذن في ميولكم في هذا الأمر ! أهي منسجمة مع ميول المسيح ؟ أم تعبث بها سفسطات المادية وتنحرف بها عن الجادة ؟

يا رجال الشمال ونساءه المسيحيين ! ما زال هناك مزيد ، — فأنكم تملكون قوة أخرى ، انكم تستطيعون أن تصلوا ! أتؤمنون بالصلاة ؟ أم أنها باتت عندكم تقليدا رسوليا مهملا ؟ انكم تصلون لأجـــل الوثنيين في خارج البلاد ، فصلوا أيضا لأجل الوثنيين في داخلها . صلوا لأجل المسيحيين المكروبين الذين لا تعدو كـــل فرصتهم في الهداية الدينية أن تكون مصادفة من مصادفات التجارة والبيـــع ،

والذين يستحيل عليهم التمسك بفضائل المسيحيـــة فى كثير من الحالات ما لم يوهبوا من السماء بسالة الاستشهاد ونعمته

ولكن هناك أيضا مزيدا فان على شواطىء ولاياتنا الحرة تنبعث الحطام المهشمة البائسة المتخلفة من أسر دمرت ، — رجـــال ونساء نجوا بفضل العناية الالهية المعجزة من أمواج الرق المصطخبة — وهم ضعاف المعرفة ، وفى كثير من الأحيان مضعضعو الخلق بفعل نظام يعصف بكل مبدأ من مبادىء المسيحية والفضيلة وهم يلتمســون بينكم ملجأ وملاذا ، انهم يلتمسون التعليم ، والمعرفة ، والمسيحية

أيها المسيحيون « أى دين تدينون به لهؤلاء التعساء المساكين ؟ ألا يدين كل مسيحى أمريكى للجنس الافريقى بجهد يبذله للتعويض عن المظالم التى جرها عليهم الشعب الأمريكى ؟ أنغلق دونهم أبواب الكنائس والمدارس ؟ أتقوم قائمة الولايات وتقصيهم عن أرضـــها ؟ أتسمع كنيسة المسيح فى صمت ما يرمون به من تعيير وتبتعد عــن اليد العاجزة التى يمدونها اليها ، وتشجع بصمتها هذا القسوة التى تريد أن تطاردهم حتى تطردهم عن حدودنا ؟ اذن لكان هذا مشهدا محزنا حقا اذن لحق للبلاد أن ترتجف ، حين تذكر أن مصـــير الشعوب فى يدى رب كثير الرأفة عظيم الرحمة والحنان ٠

أتقولون « لا نريدهم هنا فليذهبوا الى افريقيـــا ؟ » ، أن من الحقائق الملحوظة والعظيمة حقا ان قيضت العناية الالهية لهم ملجــأ فى افريقيا ولكن هذا لا ينهض مبررا لاطراح كنيســـة المســـيح مسئوليتها نحو هذا الجنس المنبوذ ، تلك المسئولية التى تفرضهــا عليها وظيفتها

أما أن تملأ ليبريا بجنس جاهل عديم الخبرة قد استــوحش أو كاد ، جنس حديث عهد بأغلال الرق التى هرب منها ، فذلك يعنى أننا سنطيل فترة الكفاح والنضال التى ترافق ادخـال المشروعـات الجديدة أجيالا وأجيالا ٠ فلتستقبل كنيسة الشمال اذن هؤلاء المعذبين البائسين بروح المسيح ، ولتمنحهم مزايا التعليم فى المجتمع الجمهورى المسيحى وفى مدارسه ، حتى اذا بلغوا مستوى لائقا من النضـــج

الفكرى والخلقى أعانتهم على الرحلـــة الى تلك الشـــواطىء حيث يستطيعون أن يطبقوا العلم الذى تلقوه فى أمريكا على العمل

ان فى الشمال جماعة صغيرة نسبيا تقوم بهذه المهمة . وكان لعملهم هذا الفضل فى ظهور أمثلة من رجال كانوا عبيدا أرقاء فيما مضى من العمر ، ولكنهم حصلوا ثروة وتعليما وسمعة طيبة فى وقت قصير وكان له الفضل فى تنمية مواهب تعد ولا شك ممتـازة اذا قيست بالظروف المحيطة بها أما فى فضائل الأمانة واللطف والحنان — وأما فى البطولات والتضحيات التى احتملوها ليفتدوا اخوانا وأصدقاء من أغلال العبودية — فقد تفردوا الى درجة مذهلة اذا راعينا المؤثرات التى ولدوا فى كنفها

لقد عاشت الكاتبة أعواما كثيرة على حدود ولايات العبيد ، وأتيحت لها بين العبيد السابقين فرص عظيمة للملاحظة لقد كانوا يعملون فى أسرتها خدما ، واذ لم يكن هناك مدرسة أخرى تقبلهم ، فقد عملت فى كثير من الحالات على أن تدخلهم مدرسة للأسرة ، حيث يتلقـــون العلم مع أطفالها هى كذلك جاءتها شهادة المرسلين العاملين بـــين اللاجئين فى كندا متفقة مع تجربتها الخاصة . والنتائج التى خلصت اليها عن كفايات هذا الجنس مشجعة الى أبعد الحدود .

فأول ما يشتهيه العبيد المتحررون عادة هو التعليم . وليس هناك شىء يحجمون عن بذله أو عمله فى سبيل تعليم أبنائهم ، وقد ثبت للكاتبة من ملاحظتها الخاصة أو من شهادة معلميهم أنهم أذكياء سريعو التعلم بدرجة ملحوظة وتؤيد هذه الحقيقة تأييدا تاما نتائج المدارس التى أنشأها لهم أفراد من أهل البر فى سنسناتى

وتسوق المؤلفة البيانات التالية المستقاة من الأستاذ ك . أ . ستو ، الذى كان فى تلك الفترة أستاذا بكلية لين اللاهوتية فى أوهايو وهى بيانات عن عبيد تحرروا ويقيمون الآن فى سنسناتى ، وقد أتى بها دليلا على كفاية هذا الجنس حتى اذا أعوزته المساعدة أو التشجيع الكثير

وسأجتزىء هنا بذكر الأحرف الأولى من أسمائهم ، وجميعهم من

« ب ـ صانع أثاث ، له عشرون سنة في المدينة ، رأسماله عشرة آلاف دولار كلها من كسبه هو ، معمداني المذهب . »

« س ـ أسود خالص. خطف من أفريقيا ، وبيع في نيو أورلينز ، وتحرر منذ خمسة عشر عاما . افتدى نفسه بستمائة دولار ، مزارع، يملك عددا من المزارع في انديانا ، مسيحي المذهب ربما بلغ رأسماله خمسة عشر أو عشرين ألف دولار كسبها كلها بجهده

« ك ـ أسود خالص ، تاجر عقار ، رأسماله ثلاثون ألف دولار ، يناهز الأربعين ، تحرر منذ ست سنوات ، وافتدى أسرته بألف وثمانمائة دولار ، عضو في الكنيسة المعمدانية ، ورث عن سيده تركة رعاها وزاد عليها .

« ج ـ أسود خالص ، تاجر فحم ، يناهز الثلاثين ، رأسماله ثمانية آلاف دولار ، افتدى نفسه مرتين ، لأنه نصب عليه مرة في ألف وستمائة دولار كسب ماله كله بجهده الخاص ـ الذي بذل كثيرا منه وهو عبد ، فستأجر وقته من سيده ، واشتغل لحسابه الخاص، شاب لطيف مهذب

« و ـ ثلاثة أرباع أسود ، حلاق وخادم مائدة من كنتكي ، تحرر منذ تسعة عشر عاما ، افتدى نفسه وأسرته بأكثر من ثلاثة آلاف دولار ، رأسماله عشرون ألف دولار من كسبه الخالص ، شماس بالكنيسة المعمدانية .

« ج . د ـ ثلاثة أرباع أسود ـ نقاش من كنتكي ، تحرر منذ تسع سنوات ، دفع ألفا وخمسمائة دولار ليفتدي نفسه وأسرته ، مات أخيرا في الستين . رأسماله ستة آلاف دولار

يقول الأستاذ ستو « لقد عرفت هؤلاء جميعا ـ باستثناء ج ـ معرفة شخصية منذ سنوات ، وهذه البيانات أسوقها عن علمي الخاص .

وتذكر الكاتبة جيدا امرأة ملونة عجوزا كانت تعمل غسالة في

بيت أبيها وقد تزوجت ابنتها عبدا ، وكانت شابة على جانب كبير من الكفاية والنشاط ، فاستطاعت باجتهادها وتدبيرها وتضحيتها المثابرة أن تجمع تسعمائة دولار لتحرير زوجها ، وكانت تدفع المال لسيده حال جمعها له . ولكن ثمن عتق زوجها كان ينقصه مائة دولار أخرى وإذا الرجل يموت ، ولم تستطع استرداد أى شيء من مالها الذى دفعته له .

هذا قليل من كثير يمكن الاستشهاد به على ما أبداه العبيد بعد تحررهم من انكار للذات وهمة وصبر وأمانة .

وليذكر القارىء أن هؤلاء الأفراد قد نجحوا ببسالة فى الحصول على الثروة والمكانة الاجتماعية برغم جميع المعوقات والعقبات فالرجل الملون لا حق له فى التصويت بمقتضى قانون أوهايو ، بل انه كان الى سنوات محروما حق الشهادة فى دعاواه ضد البيض . وليست أوهاويو وحدها هى التى تمدنا بهذه الأمثلة .فأنت تصادف فى جميع ولايات الاتحاد رجالا لم يحطموا أغلال الرق الا بالامس القريب ،قد استطاعوا أن يرتقوا الى مراكز مرموقة فى المجتمع بقوة تعليمهم لأنفسهم ، وهى قوة لن نوفيها حقها من الاعجاب مهما غالينا ، ومن الأمثلة المعروفة من رجال الدين بننجتون ، ومن المحررين دوجلاس ووارد

فاذا كان هذا الجنس المضطهد قد قام بهذا كله برغم التثبيط والتعويق ، فما بالك بما يستطيع انجازه لو تصرفت الكنيسة المسيحية مع أفراده بروح المسيح !

ان العالم يعيش فى عصر ترتجف فيه الشعوب وتضطرب .. وفى الخارج مؤثر جبار يصطخب ويزلزل الدنيا . فهل أمريكا بنجوة منه ؟ أن كل أمة تطوى جوانحها على ظلم كبير لم يرفع ، فيها عناصر هذا الاضطراب الأخير .

فما هو هذا المؤثر الجبار الذى يبعث فى كل الأمم واللغات تلك الانات التى لا ينطق بها طلبا للحرية والمساواة بين الناس ؟

يا كنيسة المسيح اقرئى علامات الزمن ! أليست هذه القوة روح

ذاك الذى لم يأت ملكوته بعد ، والذى ستتحقق مشيئه على الأرض كما فى السماء ؟

ولكن من يحتمل يوم مجيئه ؟ « اليوم المتقد كالتنور ·· يوم يكون شاهدا سريعا على السالبين أجرة الأجير ، الأرملة واليتيم ، ومن يصد الغريب ·· يوم يسحق الظالم »

أنيست هذه كلمات رهيبة لأمة طوت جنبيها على ظلم فادح كهذا ؟ أيها المسيحيون ! أتستطيعون ، فى كل مرة تصلون ليأتى ملكوت الله ، أن تنسوا أن النبوءة قرنت قرنا رهيبا بين سنة المفديين ويوم الانتقام ؟

لم تزل أمامنا مهلة ربانية · لقد أذنب الشمال والجنوب جميعا أمام الله ، وستحاسب الكنيسة المسيحية حسابا عسيرا · وهذا الاتحاد الأمريكى لن ينقذه التضافر لحماية الظلم والقسوة ، ولن ينقذه اشاعة الاثم بين الناس أجمعين ، انما الذى ينقذه هو التوبة والعدل والرحمة ، لأن القانون الأزلى الذى يغوص بمقتضاه حجر الرحى فى أعماق المحيط ، هذا القانون ليس أوثق ولا أوكد من قانون آخر أقوى منه وأشد ، القانون الذي ينزل سخط الاله القدير على رأس الشعوب جزاء وفاقا على بغيها وقسوتها ·

تصويبات

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
		يس	ليس			على أن حول	على أي حال
		عليهما	عليها			ماشئنا	شئنا
		انتابهه	انتباهه			اعلاله	أغلاله
		وثبتتها	وثبتتهما	١١١		فيها ونعمت	فيها ونعمت
		ياغملان	يا غلمان			حرق	جرك
		هاكم أولاء كلبا	هاكم كلبا			صالح	صلاح
		فها انتذا	فهأنتذا			تؤذن	تؤذى
	١٨	مرعة	مزرعة			ما يجرؤ	فما يجرؤ
		ذك	ذلك			فقد فقد	قد فقد
		لسك	لست			نيواولينز	نيوأورلينز
		تجيل	تحيل			لقاءة	لقاءه
		هذا	هذان			منه	منعه
		سيئا	شيئا		١٩	إنسانبين	انسانيين
		قاالت	قالت			كتابه	كتابة

مطبعة أطلس
١١ - ١٣ ش سوق التوفيقية